فضائل الغيرة على النساء

قدم له فضيلة الشيخ الدكتور

محمد أحمد إسماعيل المقدم

تأليف أبو يعلى

حمادة أحمد محمد إسماعيل

دار القمة

دار الإيمان

رفع الصوت بالنداء في

فضائل الغيرة على النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة
فضيلة الدكتور
محمد أحمد إسماعيل المقدم

الحمدُ لله وحده، والصَّلاة والسّلام على من لا نبيَّ بَعْدَهُ، وعلىٰ آله وصحبه.

وبعد،

فإنّ الغيرة السويّة من مكارِمِ الأخلاقِ الَّتي امتدحها الشّرعُ الشَّريف؛ وذلك لما يترتب عليها من صيانة الأعراض، وحفظ الحرمات، ونشر الفضيلة في المجتمع، وتطهيره من الرذيلة، إلىٰ كونها مؤشراً علىٰ قوة الإيمان ورسوخه في القلب، ومظهراً من مظاهر

الرجولة الحقة، ووسيلة إلىٰ تعظيم شعائر الله تعالىٰ، وحفظ حدوده.

وقد طُفْتُ بصفحات هذه الرسالة اللطيفة، فألفيتها نافعة في بابها، جامعة في مادتها، فأسأل اللهَ تعالَىٰ أن ينفع بها النفع العميم، وأن يُثيب جامعها الأجر الجزيل، والذكر الجميل، إنّه بكل جميل كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

محمد أحمد إسماعيل المقدم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله، والصّلاة والسّلام على رسولنا محمد ﷺ وعلىٰ آله وصحبه .

أمّا بعد،

فإنّ النّاظر إلىٰ حال أمّتنا في هذه الأزمنة يرى أنّ هناك انحداراً كبيراً في مجال الأخلاق تهوي به أمّتنا، وإذا لم نسارع إلىٰ علاجه سقطنا في هاوية لا قرار لها.

إنّ أعداء الإسلام استطاعوا أن يصلوا إلىٰ ما يريدون بنا وأن يصرفوا الأمة عن دينها وأخلاقها النّبيلة، واستعانوا علىٰ ذلك بمن سفه نفسه من خدم الشّيطان، الّذين رضوا بأن يكونوا جنوداً ينفّذون

أوامر ساداتهم الغربيين، وذلك بأن يضعوا العراقيل، ويطرحوا الشّوك في طريق الحقّ مع أنهم يعرفونه معرفة جيّدة، ولكنهم إمّا يفعلون ذلك لؤمًا منهم وخبث طباع، أو لأنهم باعوا دينهم بعرض قليل من الدّنيا، وأعني بهذا العلمانيين الّذين يمكرون الليل والنهار للكَيْد بهذه الأمّة، ولإبعادها عن تراثها وأصولها، وجعلها تابعة لحضارة الغرب وأخلاق الغرب؛ فحدث مسخٌ وتشويه في بلاد المسلمين، فأضحت وكأنها بلاد لغير المسلمين، ولله أمر هو بالغه.

إنّ هؤلاء العلمانيين استطاعوا حقًا أن يصرفوا الأمة عن دينها وأخلاقها الحميدة متّبعين في ذلك شتّى الطّرق ومختلف الوسائل، ومظاهر ذلك كثيرة جداً، ولكن هناك أمر هو في نظري من أخطر ما

فعلوه، وهو قتل الغيرة على الأعراض عند كثير من أهل الإسلام، والّتي كانوا يتحلّون بها أوان كان في الأخلاق الحميدة راغب وللرجولة الحقة طالب.

إنَّ قتل الغيرة علىٰ الأعراض في نفوس المسلمين ليس بالأمر الهيّن، بل هو أمر أضراره جسيمة وعواقبه وخيمة؛ فلقد ترتّب عليه فساد عريض حلَّ بالبلاد والعبَادِ، فأينما ولّىٰ المرء بوجهه لا يرىٰ إلاَّ شراً ورذيلة، كأنّ ربّ العالمين لم يُنزل كتابًا، ولم يُرسل رسولاً.

لقد أصْبَحَ العُرَىٰ والاختلاط بين الرِّجال والنّساء أمر عادي، بل حريةٌ شخصيّة وحضارة وتقدّم، أمَّا التستر فأمْرٌ منبوذ لا يدلُّ إلاَّ علَىٰ التَّخَلُّفِ والرّجعيّة!.

لقَدْ صار أمْرُ الأمّة يشردُ النَّوْمَ عَنِ العين، ويَملأ الصَّدْر غمًّا وهَمًّا.

إنّنا نستطيع أن نقول في عموم وإطْلاق: إنّ غربة

الإسلام قد عادت من جديد، وإنّ كثيراً من تعاليم الدّين وشرائعه قد انْدَرَسَتْ، وأصبحَ المتمسكون بدينهم أغرب من فرس بهماء في غلس شديد الظلمة، وهذا مصداق لقولِ النّبيّ ﷺ: «يدرسُ الإسلام كما يدرس وشي الثّوب، حتىٰ لا يدري ما صيام ولا صلاة ولا صدقة، ولا نُسُك». وقوله ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ، فطوبىٰ للغرَباء». وفي رواية: قيل: مَنِ الغُرَبَاء؟ قالَ: «الَّذين يصلحون عند فساد النّاس».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قَالَ رسول الله ﷺ: «طوبىٰ للغرباء». قالوا: يا رسول الله، من هُمْ؟ قال: «أُنَاسٌ صالحون في أُناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم» وفي رواية: «من يبغضهم أكثر ممن يحبهم»

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمانٌ الصابر على دينه كالقابض على الجمر».

وإنَّ مجموع هذه الأحاديث يقضي بأن غربة ستكون، وأنَّ فساداً سيحلُّ بالبلاد والعباد، ولقد وقع هذا بالفعل وعادت غربة الإسلام من جديد.

وإنَّ من مظاهر هذه الغربة وهذا الفساد موت النخوة والحمية والغيرة عند كثير من المسلمين، والله المستعان، وإليه المشتكى، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

فهذه رسالة إلى عموم المسلمين في شتى البقاع في بيان أنَّ الغيرة من الأخلاق الحميدة الّتي حثّت عليها الشريعة ودعَتْ إلَيْهَا لعلّها تكون سببًا في إحياء هذا الخلق عند من كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد.

ونُريد من القارئ أن يصبر علىٰ قراءتها إذا وجد في بعض ألفاظها نوعًا من الخشونة والغلظة؛ فإنّ الأمر كما قال أبو حيّان التوحيديّ في كتابه الماتع النفيس «الإمتاع والمؤانسة» : «إنّ الحق مرّ، ومن توخّىٰ الحق احتمل مرارته، فليس يُنتفع بالدّواء إلاّ بالصّبر علىٰ بشاعته وصدود الطّبع عن كراهته».

كتبه

حمادة أحمد إسماعيل

فصل

في بيان معنى الغيرة وأنها من الفطرة

إنّ الغيرة على المعنىٰ الّذي نحن بصدده خلق خلقه الله - عز وجلّ - في فطر الرّجال، وهي صفة تحمل صاحبها علىٰ حماية وصيانة عرضه، والمحافظة علىٰ أهله ونسائه.

قال ابنُ قيِّم الجوزية: «وأمّا الغيرة علىٰ المحبوب، فهي أنفة المحب وحميته أن يُشاركه في محبوبه غيره، وهذه أيضًا نوعان: غيرة المحب أن يشاركه غيره في محبوبه، وغيرة المحبوب على مُحبّه أن يُحبّ معه غيره».

قَالَ الحافظُ ابنُ حجر العسقلانيُّ في «الفتح»: «قالَ عياض وغيره: هي مشتقّةٌ من تغيّر القلب

وهيجان الغضب؛ بسبب المشاركة فيما فيه الاختصاص، وأشد ما يكون ذلك بين الزوجين هذا في حقّ الآدَمِيّ».

والأصلُ أنَّ الغيرة خلق في الذكر سواء كان إنسانًا أو حيوانًا، ولقد قال الراجز:

يَغارُ والغيرة خلق في الذَّكَرِ.

وقَالَ آخر:

والفحل يحمي شوله معقولا.

وَلَكِنْ يُستثنَىٰ من ذلك من انتكست فطرته من ذكور بني آدم والحيوانات خسيسة القدر والهمّة.

وإنّني لا أُنكِرُ أنّ كثيراً ممّن نقصت عندهم الغيرة وتركوا نساءَهم يخرجن متبرجات وبلا محرم، ويُخالطن الرجال وغير ذلك من مظاهر الفساد في هذا الأمر لا أنكر أنّ فيهم خيراً كثيراً، ولكنهم نشأوا

وتربّوا في بيئة لا تستنكر مثل هذه الأمور؛ فتغيّرت فطرتهم بسبب ذلك، وكما قال الشاعرُ:

وَيَنْشَأُ ناشئُ الفتْيان فينا

علَىٰ ما كانَ عَوَّدَهُ أَبوهُ

والبيئة الَّتي يعيش فيها الفرد لها أثر كبير في تغيير فطرته وسلوكه وأفكاره، ولقد قال ابن خلدون في المقدمة: «الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه؛ فالذي ألفه في الأحوال حتَّىٰ صار خلقًا وملكة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيراً صحيحًا، والله يخلق ما يشاء».

ولكن سيتبيّن للقارئ في هذه الرسالة أهمّيّة هذا الخلق وأنّهُ لابد لأي رجلٍ أن يتحلّىٰ به، وسيعلم أنَّ الدياثة عيب مشين جداً يزري بمكانة الرجال، ويحطّ

بهم إلىٰ موضع لا يرضاه أي حر كريم.

بل أقول: لا يكونوا رجالاً ولا يستحقون وصف الرجولة، وهم لا يتحلّون بهذا الخلق.

فصل

في بيان أن الضرورة داعية لقوامة الرجل على المرأة وأنّ هذه القوامة باعثها الغيرة

إنّ أعظم الفتن وأكثرها ضرراً علىٰ الرجال هي فتنة النّساء، ولقد قال النّبيُّ ﷺ: «ما تركتُ فتنة أضرَّ علىٰ الرجال من النّساء»(١).

وقَالَ - أيضًا - ﷺ: «إنَّ الدُّنيا حُلْوَةٌ خَضِرةٌ، وإنَّ الله مُسْتَخْلِفكم فيها، فناظرٌ ماذا تعملون؛ فاتّقوا الدُّنْيَا، واتّقوا النِّسَاءَ؛ فإنَّ أوّل فتنة بني إسرائيل كانت في النّساء»(٢).

وقَالَ ابنُ القيّم: «وقد قيل: هؤلاء فتن الرجال،

---

(١) رواه البخاري عن أسامة بن زيد وأخرجه مسلم عن أسامة بن زيد أيضًا.

(٢) أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري (٢٧٤٢).

وكم قد مات بهنّ من كريم وعطب عليهن من سليم».

ففتنة النّساء فتنة عظيمة، وأضرارها جسيمة، وكم أهلكت من حازم، وأردت من عاقل، وهذا مصداق لقول النّبيّ ﷺ: «ما رأيتُ من ناقصات عقل ودين أذهب لذي لُبٍّ منكنّ»(١).

وقَالَ جرير:

يصرعن ذا اللّبّ حتّىٰ لا حراك به

وهُنّ أضعفُ خلق الله إنسانًا

هذا ولأن المرأة ضعيفة، وناقصة عقل ودين كما مرّ في الحديث؛ فإنّ الشّرع قد وكل أمرها إِلَىٰ الرجل، وجعل له قوامة عليها، حتىٰ يحميها ويصلح من

---

(١) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رقم (٢٩٨)، ومسلم عن ابن عمر (١٣٢).

شأنها ويقوّمها إذا اعوجّت، فقال تعالىٰ: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤].

وقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «اتَّقوا الله في النّساء؛ فإنَّهُنَّ عوانٍ عندكم» (١). أيْ: أسيرات.

وقالَ: «الرجل في بيته مسؤول عن رعيّته» (٢)، وقال تعالَىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

[التحريم: ٦].

ولم يجعل الشّرع أمرها إلىٰ نفسها حتىٰ في

---

(١) رواه الترمذي عن سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه (١١٦٣)، قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الألباني: حسن.

(٢) رواه البخاري عن عبد الله بن عمر رقم (٨٥٣) ورواه مسلم وأبو داود.

الزّواج؛ فقال النَّبيُّ ﷺ: «لا نكاح إلاَّ بوليّ» (١) وفي رواية: «وشاهدي عدل» (٢).

وعن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: «أيُّمَا امرأة نكحت بغير وليٍّ فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فإنْ دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها، فإن اشتجروا فالسّلطان وليُّ من لا وليَّ له» (٣).

وأَيْضًا شرع لها الاستئذان إذا أرادت أن تشهد صلاة الجماعة في المسجد، وحرّم عليها أن تُسافر وحدها بلا محرم؛ فقال النَّبيُّ ﷺ: «لا يخلونَّ رجلٌ بامرأة إلاَّ ومعها محرم، ولا تُسافر المرأة إلاَّ مع ذي محرم» (٤).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) صحيح ابن حبان عن عائشة وحسّنه شعيب الأرنؤوط في تخريج صحيح ابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) رواه الخمسة عن عائشة إلاَّ النسائي، وقال الألبانيُّ في مختصر إرواء الغليل: صحيح.

(٤) قال الألبانيُّ: رواه أحمد والترمذيّ، وقال: صحيح، «صحيح الجامع».

وهذه القوامة الّتي للرّجل علىٰ المرأة الَّذي يبعثها ويحركها، ويجعل الرجل يقوم بها علىٰ أكمل وجه هو خلق الغيرة الَّذي جبله الله – عز وجل – عليه كي يحافظ علىٰ نسائه، وإنّ نقصان الغيرة عند الرجل يؤدي إلىٰ تفريطه في قوامته علىٰ المرأة، فتهدر كثير من تعاليم الشّرع في هذا الأمر والّتي تُعدّ تدابير وقائية لحماية المرأة وصيانة للمجتمع من الفساد؛ وذلك لأن فساد المرأة يؤدّي إلىٰ فساد المجتمع كله، ولقد علم أعداء الإسلام ذلك، فعولّوا عليه في هدم كيان المجتمع الإسلامي فقال قائلهم: كأس وغانية يفعلان في الأمة الإسلامية ما لا تفعله الصّواريخ والدبّابات.

ولقد نادىٰ أتباعهم بحرية المرأة وتحريرها، وأنّهُ من الضروري أن تأخذ المرأة حريّتها وحقوقها، وافتروا

على الإسلام بأنه لم يُعطِ المرأة حقوقها وحريتها..، وكذبوا في ذلك كله؛ فإنّ الإسلام هو الّذي أعطىٰ المرأة حقوقها، ودلائل ذلك كثيرة جداً، ولقد بسط القول فيها أكثر من عالم في هذا العصر، مما لا يجعلنا في حاجة إلىٰ اقتضاب قول أو تكلُّف إسهاب.

ولكن هناك أمرٌ ينبغي أن نُلْفتَ إليه الانتباه وهو أنّ قوامة الرجل علىٰ المرأة لا تعني التّسلُّط والظُّلْم والقهر للمرأة، بل هي علىٰ العكس من ذلك تمامًا، فهي كما قدّمنا حماية وصيانة للمرأة، فهي من مصلحتها لا ضدّ مصلحتها؛ فهي أشبه بقوامة الرجل علىٰ أولاده، فهو يُبيح لهم فعل أشياء ويمنعهم من أشياء أُخر، ويعاقبهم إذا أخطأوا، ولا يُنكر عليه في ذلك؛ لأنه يفعل ذلك لمصلحتهم.

وأيضًا هذه القوامة تؤدي إلىٰ فضّ النزاعات بين الرجل والمرأة؛ لأنّ المرأة يجب عليها طاعة الزوج، وتسليم الأمر إليه، بشرط أن يكون ذلك في غير معصية الله - عز وجلّ - فإن لم تكن ثمة قوامة للرجل علىٰ المرأة لحدث الشقاق والاختلاف بينهما؛ لأنّ كلاًّ منهما يُريد أن يمضي رأيه وما يعتقده صحيحًا.

وكانت القوامة للرجل دونَ المرأة؛ لأنّ الرجل في الغالب أرجح منها عقلاً، وأحزم، وأصوب رأيًا منها، ولا أقول هذا تعصبًا لجنسي - بطبيعة الحال - بل هو أمر بينه الشّرع، ويشهد له الحس، ولسنا في حاجة إلىٰ أن نُدلل عليه، فهو واضح لكل أحد، ولا يبقىٰ في الأذهان شيء إذا احتاج النّهار إلىٰ دليل.

وأيضًا أمر الشّرع بالإحسان إلىٰ النساء والرفق

بهن، فقال النبيُّ ﷺ: «اتَّقوا الله في النّساء؛ فإنّهُنّ عوان عندكم» (١) .

وقال ﷺ: «استوصوا بالنّساء خيراً؛ فإنّهُنّ خُلِقْنَ من ضلع، وإنّ أعوج الضّلع أعلاه، فإذا أتيت تُقيمه كسرته، فاستمتعوا بهن وبهن عوج» (٢) .

ولّما أمر - ﷺ - بضربهنّ قال: «اضربوهنّ ضرباً غير مبرح» (٣) .

وقال ابنُ كثير - رحمه الله - عند قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، أي: ولَهُنَّ علىٰ الرجال مثل ما للرجال عليهنّ؛ فليؤدِّ كلٌّ واحد منهما إلىٰ الآخر ما يجب عليه بالمعروف

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاريّ عن أبي هريرة، ومسلم أيضًا عن أبي هريرة.

(٣) رواه ابن ماجه والترمذي، وصححه عن عمرو بن الأحوص مرفوعًا، وحسنه الألبانيُّ.

كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر أنّ رسول الله ﷺ قال في خطبة حجة الوداع: «فاتّقوا الله في النساء؛ فإنّكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهنّ رزقهن وكسوتهن بالمعروف».

وفي حديث بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أنه قال: يا رسول الله، ما حقّ زوجة أحدنا؟ قال: «أن تُطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلاّ في البيت»

وعن وكيع عن بشير بن سليمان عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إنّي أُحبُّ أن أتزين لامرأتي

كما أحبُّ أن تتزين لي المرأة؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿ ولَهُنَّ مِثْلُ الَّذي عليهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]»(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] أي في الفضيلة، والخلق والمنزلة، وطاعة الأمر والإنفاق، والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ على النِّسَاءِ ﴾ [النساء: ٣٤].

ونحن عندما نقول: إنّ المرأة ليس لها أن تُسافر بلا محرم لم نختلق هذا من عند أنفسنا، بل هذا شرع رب العالمين، ثمّ إنّ المرأة ضعيفة بطبيعة خلقها وتنقاد سريعًا لأهوائها وعواطفها، فكونها تسافر مع محرم هذا حماية لها أولاً، وحماية للمجتمع الّذي

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

تكون فيه، وإلاَّ فمَنِ الَّذي يحمي امرأة في بلد هي غريبة عنها إذا أراد بها أحدٌ سوءاً، ومن يمنعها إذا أرادت هي سوءاً، والمرء لا يستحي في بلد الغربة مما قد يستحي منه في بلده ووطنه.

ونحن عندما نقول: إنّ المرأة ليس لها إلاّ بيتها، نحن بهذا لم نظلمها، فإننا عندما نتأمل قليلاً في طبيعة الرجل والمرأة نجد تبايناً كبيراً بينهما، وهذا التباين لم يأتِ عفوياً، بل هو تباين مقصود، جعله الله ـ عز وجل ـ لحكمة؛ فإنّ المرأة تتّصف باللّين والرِّقَّة والضعف، وأيضًا يعتريها الحيض والنّفاس والحمل والولادة والرضاع، وحبّب إليها الزينة والحلي.

وأمّا الرَّجُل فعلىٰ العكس من ذلك تمامًا فهو يتّصف بالقوّة والشّدّة والحزم، ولا يعتريه ما يعتري

المرأة؛ فلذلك كان لكل منهما مهام معينة؛ فالمرأة بطبيعتها تصلح لتربية الأولاد وأعمال المنزل وهذا أمر ليس بالهيّن، ويحتاج إلىٰ أن تتفرغ المرأة له تمامًا، وعندما فرّط النساء في هذا انعكس ذلك علىٰ بيوت المسلمين وأولاد المسلمين، وظهر عقوق الوالدين والتّفكُّك الأُسريّ.

أمّا الرجل فهو الّذي يخرج ليتكسب ويُنفقُ علىٰ أهله وعليه أن يتجشم الصِّعاب في سبيل ذلك.

وهاهُم العلمانيّون قد أخرجوا المرأة من بيتها وحرروها من دينها وأخلاقها النّبيلة، فماذا صارت؟ صارت عارية علىٰ الشّواطئ وفي المنتديات العامة يتفرّج عليها النّاس، وصارت خادمة في الطائرات والمطاعم والفنادق والبارات، وصارت راقصة ومغنية وممثلة، تبيع عرضها في مقابل المالَ.

هل هي تعرض شيئًا ينفع البشرية؟! لا والله، إنها تعرض جسدها ومفاتنها؛ لتفتن شباب المسلمين لا غير.

صارت المرأة مجرد سلعة رخيصة؛ للتسلية والمتعة.

فصل

في الغيرة بين الجاهلية والإسلام

إنّ خلق الغيرة ذكره أهل الجاهلية الجَهْلاء، وجاء في أشعارهم وأخبارهم، ثم لم يزده الإسلام بعد إلاَّ شدَّة، فإنّ من محاسن ديننا الاهتمام بمكارم الأخلاق، ولقد قال النَّبيُّ ﷺ: «إنّما بُعِثْتُ لأُتَمّمَ مَكارِمَ الأخلاق»، فلَمَّا بُعِثَ النَّبيُّ أقرَّ ما كان عليه الجاهليّون من أخلاق حسنة وألغىٰ ما كانوا عليه من أخلاق رديئة، وهذّب ما يحتاج إلىٰ تهذيب، ومن مكارم الأخلاق الّتي كان الجاهليون يتّصفون بها خلق الغيرة، فقد كانت عندهم غيرة علىٰ أعراضهم ومحارمهم، ولا يرون بأسًا في أن يَقتُلَ المرءُ أو يُقْتَل في سبيل حماية عرضه.

وربَّما قامت الحروب غيرة علىٰ المرأة، وحمية لشرفها، واستجابةً لاستغاثتها واستنجادها، وهذه حرب الفِجَار تنشب بين قريش وهوازن؛ بسبب تعرُّض شاب من كنانة لامرأة من غمار النّاس راودها عن كشف وجهها، فنادت: يا آل عامر، فلبّتها سيوف بني عامر.

وقد رُويَ أنّ رجلاً اسمه سُلَيْكٌ مرَّ بامرأة من خَثْعَم، فوجدها وحدها وهي في غاية الحسن والجمال ففعل معها الفاحشة قهرًا، فبلغ ذلك أنس ابن مدركة الخثعمي، فقتله، ودفع ديّته، ثمَّ قال:

إنّي وقَتْلِي سُلَيْكًا ثمَّ أعقله
كالثّورِ يُضْرَبُ لما عَافَتِ البَقَرُ

ومعنىٰ البيت: إني أضرّ نفسي وأنفعُ غيري؛ لأنّني قتلتُ سليكًا، ثُمَّ وديته كذكر البقر يُضرب

ليرد الماء إذا عافته إناثه، وامتنعت من شربه، فترده بالتبعية له وأما هي فلا تُضرب؛ لأنها ذات لبن، فوجه الشَّبه أنَّ كلاًّ منهما حصل له ضرر بسبب غيره، وأمّا المرأة فلم يقتلها؛ لأنّها كانت مقهورة كما مرَّ [وهذا ذكره الجرجاوي في شرح شواهد ابن عقيل].

ونستنبط من هذا أنّ هذه المرأة لم تكن زوجة لأنس أو قريبة له، وإنّما كانت من قبيلته فقط، ولو كانت زوجته أو قريبته لما قال هذا البيت، ومع هذا غار عليها وأبىٰ إلاَّ أن يقتل هذا المعتدي ولو كلّفه هذا دفع الدّية.

ولّما أراد الشَّاعر الإيادي لَقِيطُ بن يَعْمُر أن ينذر قومه غزو كسرىٰ لهم، وكانت إياد قد غزت ملوك آل نصر، فأصابت امرأة من أشراف العجم وكانت عروساً هُديت إلىٰ زوجها، فلم يجد لقيط إلاَّ أن يذكر قومه

بغيرتهم علىٰ نسائهم؛ حتَّىٰ يستحثهم ويستثيرهم؛ لأنّهم ركنوا إلىٰ أن كسرىٰ لن يرسل جيشًا في طلبهم، فقال:

يا قوم لا تأمنوا -إن كنتم غُيُرًا-

علىٰ نسائكم كسرىٰ وما جمعا

هو الجلاء الَّذي تبقىٰ مذلّته

إن طار طائرهم يومًا وإن وقعا

ومن المعروف في سيرة العرب في الجاهلية أنّهم كانوا يأخذون نساءهم معهم في الحروب؛ حتىٰ لا يفروا ويتركوا نساءهم، فيكون هذا دافعًا لهم علىٰ القتال، حتىٰ لا تُسبىٰ نساؤهم.

وعندهم - أيضًا - أنّ الغيرة من أسباب العفّة؛ لذلك جاء في أمثالهم: ما فجر غيور قط.

ومنهم من كان يشتط في أمر الغيرة ويُبالغ فيه حتىٰ إنّ بعضهم كان لا يزوّج بناته من فرط غيرته عليهنّ.

ولقد ذكر أبو العباس المبرِّد في كتابه «الكامل في اللُّغة والأدب»: أنّ رجلاً لم يكن يزوج بناته غيرة عليهن، حتَّىٰ ذكرن شعراً علم به رغبتهن الشديدة في الزواج... وهو خبر طويل لم أُرِد أن أُطل المقام بذكره، فمن أراده فليُراجعه.

وأيضًا منهم من كان يئِدُ ابنته خوفًا من أن تقع في الفاحشة إذا كبرت، فلما جاء الإسلام حرَّم هذا وهذّب جانب الغيرة، حيث إنَّ ديننا دين الوسطية، فلا إفراط ولا تفريط.

ولقد جعل الشّرع هذا الخلق من شعب الإيمان ومن صفات المؤمن، فقد قال النَّبيُّ ﷺ: «إنّ الله

يَغارُ، وإنَّ المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرّم الله تعالىٰ» (١).

والغيرة في حق المؤمن الحمية والأنفة، أما في حقّ الله فهي كما بيّنها النَّبيُّ في الحديث أن ينتهك المؤمن ما حرّم الله تعالىٰ.

ولقد حرّم الله عز وجل الجنّة علىٰ من لا غيرة له علىٰ نسائه فقال النَّبيُّ ﷺ: «ثلاثة قد حرَّم الله عليهم الجنّة: مُدمِنُ الخمر، والعاق، والدّيّوث الَّذي يُقرُّ في أهله الخبث» (٢).

وأباح لمن نظر أحدٌ في بيته دون إذنه أن يفقأ عينه وليس عليه دية ولا جناح.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد عن ابن عمر، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» برقم (٣٠٢٥).

وقال النبيُّ ﷺ: «من قُتِلَ دون أهله فهو شهيد»(١).

---

(١) رواه أحمد والثلاثة عن سعيد بن زيد، وقال الألباني: صحيح.
«صحيح الجامع» (٦٤٤٥).

فصل

في بيان أنّ الغيرة من صفات الرجولة ومن أخلاق النّبلاء والفضلاء

قال فضيلةُ الشيخ/ محمد إسماعيل في كتابه «عودة الحجاب»: «إنّ من حبّ الرجل لزوجته أن يغار عليها، ويحفظها من كل ما يلمّ بها من أذىً من نظرة أو كلمة، والزوجة أعظم ما يكنزه المرء، فلا يليق به أن يجعلها مضغة في الأفواه، تلوكها الألسنة، وتتقحمها الأعين، وتجرحها الأفكار والخواطر، كلاّ إنّ الغيرة أخصّ صفات الرجل الشّهم الكريم، وإن تمكنها منه يدلّ دلالة فعليّة على رسوخه في مقام الرجولة الحقّة الشّريفة ومن هنا كان كرام الرجال وأفذاذ الشُّجعان يمتدحون بالغيرة علىٰ نسائهم، والمحافظة

عليهنّ، وإنّ من شرّ صفات السّوء ضعف الغيرة وموت النخوة، ولا يركن إلىٰ ذلك إلاّ الأرذلون».

والغيرة بالمعنىٰ الَّذي نحن بصدده أظهر ما تكون في الذكر منها عن الأنثىٰ فهي من صفات الذكورة والفحولة، قال الجاحظ في ذكر محاسن الديك: «وهو يعد غيور يحمي دجاجته، **وقال الراجز:**

يغار والغيرة خُلُقٌ في الذَّكَرِ.

وقَالَ الآخر:

والفَحْلُ يحمي شوله معقولاً.

قلتُ: ولا زال النُّبلاء والفُضلاء ينعتون أنفسهم بالغيرة علىٰ نسائهم ويفتخرون بذلك كما قال أحدهم:

أغار عليها أن ترىٰ الشمس وجهها

بغير حجاب والمحب غيور

وقال آخر:

أُنزّه اسـمك أن تمر حـروفـه

من غيـرتي بمسامع الجلاَّس

فـأقـول بعض الناس عنك كـناية

خوف الوشاة وأنت كل الناس

فـهـذا يغار حتىٰ علىٰ اسم زوجتـه ولا يريد أن يعرفه أحد، فيكني عنه، ولقد لمست هذا بنفسي عند أهل القرىٰ والبوادي الذين سلمت فطرتهم، فإن كثيراً منهم يغار أن يعرف أحد اسم أي امرأةٍ من نساء بيته.

وقال النابغة الجعدي في مثل هذا المعنىٰ أيضاً:

أكنّي بغيـر اسمهـا وقـد

علم الله خفيات كل مكتتم

وقال ذو الرمة استراحة إلى التصريح من الكناية:

أحب المكان القفر من أجل أنني

أتغنى باسمها غير معجم

وغير معجم : أي في غير تكنية.

ولا ينبغي أن يعترض على هذا بأنّ كثيراً من الجاهليين ذكروا أسماء نساء في أوّل قصائدهم وتغزّلوا فيهن؛ فإنّ أسماء هذه النّساء في غالب الأمر عبارة عن رموز تُشير لأشياء معيّنة كما سمعت ذلك من الدكتور / فوزي أمين.

وأرى أنّه رأي صحيح متين، ولا أَدَلَّ على ذلك من قصيدة كعب بن زهير، والّتي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

مُتيّم إثرها لم يفد مكبول

فهذا رجل أهدرَ النَّبيُّ ﷺ دمه، وجاءه خائفًا معتذرًا، فمن هي سعاد إذن؟ أيتغزل في امرأة وهو خائف وجاء ليعتذر للنّبيِّ ﷺ في المسجد؟ هذا لا يكون أبدًا، إنّما سعاد يُقصد بها السعادة الّتي ذهبت عنه؛ لأنّ النّبيّ ﷺ أهدر دمه، فقال: بانت سعاد، إشارة لسعادته الّتي بانت، أي: رحلت.

وإنّ أهل المروءات يعجبهم أن تكون المرأة متحلية بالحياء، ولا تخالط الرجال، ولا تخرج من بيتها كثيرًا، ويجعلون ذلك سببًا في تعلقهم وحبهم لنسائهم، ولقد قال خالد بن يزيد البرمكي في رملة بنت الزبير شعرًا يقتضي هذا المقام رسمه فيه، قال:

تجول خلاخيلُ النّساء ولا أرىٰ

لرملة خلخالاً يجول ولا قُلْبا

فلا تكثروا فيها الملام فإنني

تخيرتها منهم زبيرية قلبا

أحب بني العوام طرًّا[١] لحبها

ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

وقال ابن القيم - رحمه الله -: «وقال صالح بن حسان يومًا لأصحابه: هل تعرفون بيتًا من الغزل في امرأة خَفِرة[٢]؟ قلنا: نعم، بيت لحاتم في زوجته ماوية:

يضيء لها البيت الظليل خصاصه

إذا هي يومًا حاولت أن تبسما

قال: ما صنعتم شيئًا، قلنا: فبيت الأعشى:

كأنّ مشيتها من بيت جارتها

مرُّ السّحابة لا ريث ولا عجل

قال: جعلها تدخل وتخرج. قلنا: يا أبا محمد،

---

(١) طرًّا: جميعًا.

(٢) خَفِرة: [illegible]

فأي بيت هو؟ قال: قول أبي قيس بن الأسْلَت:

ويُكرمها جاراتها فيزرنها

وتعتل عن إتيانهن فتعذر

والعرب يُشبّهون المرأة الّتي لا تخرج كثيراً من بيتها بالدرّة؛ إعْلاءً لمنزلتها وتكريمًا لشأنها، قال أبو دهبل:

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغواص

ميزت من جوهر مكنون

والّذين لا غيرة لهم علىٰ نسائهم هم - والله - أولىٰ بقول جرير في الفرزدق وقومه:

خذوا كحلاء ومجمرة وعطراً

فلستم يا فرزدق بالرجال

وشموا ريح عيبتكم فلستم

بأصحاب العناق ولا النزال

فصل

في غيرة النبيّ ﷺ

ولقد تحلىٰ النّبيُّ ﷺ بخلق الغيرة، بل كان ﷺ أغير النّاس، كيف لا وهو أفضل من وطأ الأرض بقدميه؟، فإنّه ﷺ لما قال سعد بن عبادة: لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لضربته بالسّيف غير مصفح. قال النّبيُّ ﷺ: «أتعجبون من غيرة سعد؟، واللهِ لأنا أغيرُ منه، واللهُ أغير منّي...» (١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليٌّ رسول الله ﷺ وعندي رجل قاعد، فاشتد ذلك عليه، ورأيتُ الغضب في وجهه، قالت: فقلتُ: يا رسول الله، إنّهُ أخي من الرضاعة. قالت: فقال: «انظرن من إخوتكن

---

(١) متفق عليه عن المغيرة بن شعبة.

من الرضاعة؛ فإنّ الرضاعة من المجاعة»(١) .

فإنّ هذا الَّذي كان عند السيدة عائشة رضي الله عنها كان صحابيًا، وعائشة رضي الله عنها هي الصّدّيقة بنت الصدّيق الّتي قال النّبيُّ ﷺ في حقها - بعد ذكر النساء الكاملات - : «وفضل عائشة علىٰ سائر النّساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام»(٢) .

ومع هذا كله غار النّبيُّ ﷺ وغضب، حتىٰ عُرِفَ الغضب في وجهه، وأبىٰ أن يدخل أحدٌ علىٰ نسائه إلاّ أن يكون محرمًا لهنّ.

فينبغي أن يتأسّىٰ المسلمون بالنّبيّ ﷺ ولا يُدخلوا أحدًا علىٰ نسائهم - حتىٰ ولو كان قريبًا للزوجة - إلاّ أن يكون محرمًا لهن؛ فلقد جاء في

---

(١) رواه مسلم عن عائشة، رقم (١٤٥٥).

(٢) رواه البخاري عن أبي موسىٰ (٣٢٣٠)، ورواه مسلم عن أبي موسىٰ (٢٤١٣).

الحديث الّذي رواه عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إيَّاكُم والدّخول علىٰ النّساء». قالوا: يا رسول الله، أرأيت الحمو؟ قال: «الحمو الموت» (١).
أي أنه يفسد العلاقة الزوجية كما يفسد الموت البدن.

وروىٰ البخاري في الأدب المفرد ومسلم في صحيحه أنّ النّبيَّ ﷺ كانَ له حاد حسن الصّوت يُدعىٰ أنجشة، وكان يسوق الإبل بأزواج النّبيّ ﷺ فقال النّبيّ ﷺ له: «يا أنجشة رويداً سوقك بالقوارير» (٢)، وفي رواية: «رفقًا بالقوارير».

قَال النّوويُّ: قَال العُلماء: سَمَّىٰ النِّساء قوارير؛ لضعف عزائمهن، تشبيهًا بقارورة الزجاج لضعفها وإسراع الانكسار إليها، واختلف العلماء في المراد

---

(١) متفق عليه من حديث عقبة بن عامر.

(٢) رواه البخاري عن أنس بن مالك برقم (٥٨٠٩).

بتسميتهن قوارير على قولين ذكرهما القاضي وغيره، أصحهما عند القاضي وآخرين، وهو الّذي جزم به الهروي وصاحب التحرير وآخرون، أنّ معناه أن أنجشة كان حسن الصوت وكان يحدو بهن، فلم يأمن أن يفتنهن ويقع في قلوبهن حداؤه؛ فأمره بالكفّ عن ذلك، ومن أمثالهم المشهورة: الغناء رقية الزنا.

قال القاضي: هذا أشبه بمقصوده ﷺ قال: وهو الّذي يدلّ عليه كلام أبي قلابة المذكور في هذا الحديث والقول الثّاني: أنّ المراد به الرفق في السير؛ لأن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت في المشي، واستلذته فأزعجت الراكب وأتعبته؛ فنهاه عن ذلك، لأن النساء تضعف عند شدة الحركة، ويخاف ضررهن وسقوطهن.

قال الحافظ ابن حجر: قال الخطابي: كان أنجشة

أسود، وكان في سوقه عنف، فأمره أن يرفق بالمطايا.

وقيل: كان حسن الصوت بالحداء، فكره أن تسمع النساء الحداء؛ فإنّ حسن الصوت يُحرِّكُ النفوس؛ فشبه شعف النساء وسرعة تأثير الصوت فيهن بالقوارير في سرعة الكسر إليها.

وجزم ابن بطال بالأول، وجزم أبو عبيد الهروي ورجح عياض هذا الثاني.

قلت: والراجح عندالبخاري هذا الثاني؛ لذلك أدخل الحديث في باب المعاريض.اهـ.

قلتُ: ولقد روىٰ الحاكم في المستدرك عن أنس قال: كان البراء بن مالك رجلاً حسن الصوت، فكان يرجز لرسول الله في بعض أسفاره، فبينما هو يرجز إذ قارب النساء، فقال رسول الله ﷺ: «إيّاك والقوارير» قال: فأمسك.

قَالَ محمد بن إسحاق: كره رسول الله ﷺ أن تسمع النّساء صوته، قال الحاكم: صحيح الإسناد، وقال الذّهبيُّ: صحيح.

قلت: فهذا يدل دلالة صريحة علىٰ أنّ النّبيّ خشي عليهن الفتنة بالصّوت.

فها هو النّبيُّ ﷺ لم يرضَ لأزواجه أن يستمعن لصوت الحادي مع أنهن أفضل نساء الأمة علىٰ الإطلاق؛ مخافة أن يُؤثر هذا الصوت في قلوبهن.

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: دخل النبيُّ ﷺ وعندي مخنث، فسمعته يقول لعبد الله بن أبي أمية: «أيا عبد الله، أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غداً، فعليك بابنة غيلان؛ فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان»، وقال النَّبيُّ ﷺ: «لا يدخلن هؤلاء عليكن» (١).

---

(١) متفق عليه من حديث أم سلمة.

فصل

في بيان أن الغيرة من أخلاق الصحابة

ولقد تخلّق الصّحابة – رضوان الله عليهم – بهذا الخلق وتمسّكوا به شأنه شأن غيره من واجبات الدّين، فلم يكن غريبًا من أحدهم أن يَقْتُلَ أو يُقْتل في سبيل المحافظة علىٰ أهله وعرضه، ولقد تقدّم حديث سعد بن عبادة في ذلك .

روىٰ ابن هشام في السيرة أن امرأة جاءت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع (إحدىٰ قبائل اليهود) ومالت إلىٰ صائغ يهودي؛ لتشتري منه مصاغًا، فجلست وحوله يهود، فعابوا عليها ستر وجهها، وطالبوها بكشفه، فأبت ذلك حفاظًا علىٰ عفّتها، وصيانة لشرفها من أن تبذل وجهها ينظر إليها غير

محارمها، فما كان من هؤلاء اليهود - عليهم لعنة الله - إلاَّ أن غافلها أحدهم وربط طرف درعها من أسفله بطرف خمارها، فلما قامت انكشفت عورتها فصاحت: واكشفتاه. فسمعها رجل مسلم، فهبّ إليها، فرأىٰ ما بها، فضرب اليهوديّ ضربةً قتله بها، وقام يهود، فاشتدوا علىٰ المسلم، فقتلوه، فمات شهيداً.

وكان ذلك سببًا في وقوع غزوة بني قينقاع، فسار النّبيُّ ﷺ إليهم، وحاصرهم حتىٰ نزلوا علىٰ حكمه، فأجلاهم إلىٰ الشام.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ جلوس، فقال رسول الله ﷺ: «**بينما أنا نائم رأيتني في الجنّة، فإذا امرأة تتوضّأ إلىٰ جانب قصر، فقلت: لمن هذا؟ فقيل: هذا لعمر، فذكرت غيرته،**

فولّيْتُ مدبراً» فبكىٰ عمر وهو في المجلس وقال: أوَعليك أغار يا رسول الله!(١) .

فها هو عمر بن الخطاب كان شديد الغيرة، وكان له امرأة تشهد صلاة الجماعة في المسجد، فكان عمر يكره ذلك، ويغار عليها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كانت امرأة لعمر تشهد صلاة العشاء والصبح في الجماعة في المسجد فقيل لها: لمَ تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت: وما يمنعه أن ينهاني؟ قيل: يمنعه قول رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»(٢) .

فهذا هو عمر بن الخطاب يغار علىٰ زوجته، وهي من هي؟ صحابية فاضلة، وتخرج لأمر شرعي ولا تخرج إلاّ وهي مرتدية الحجاب، والمسجد ليس بعيداً

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة، برقم (٣٠٧٠).

(٢) رواه البخاري من حديث ابن عمر، برقم (٨٥٨).

عن بيت عمر رضي الله عنه ومع ذلك كله غار عليها، ولولا حديث النّبيّ ﷺ لنهاها عن حضور الصلاة في المسجد.

فليت شعري كيف لو رأىٰ زماننا!.

ولقد أشار علىٰ النّبيّ ﷺ أن يحجب نساءه، فقال: يا رسول الله، لو حجبت نساءك، فإنه يدخل عليهن البرّ والفاجر؛ فأنزل الله عز وجل آية الحجاب(١).

وهاهو أبو حذيفة أيضًا كره أن يدخل سالم – وهو مولاه – علىٰ زوجته مع أنها هي التي قامت بتربيته وهو صغير، وكان يدخل قبل بلوغه عليها، فعن عائشة رضي الله عنها: أن سالمًا مولىٰ أبي حذيفة كان مع أبي حذيفة وأهله في بيتهم، فأتت (تعني: ابنة سهيل) النّبي، فقالت: إنّ سالمًا بلغ ما يبلغ الرجال وعقل ما عقلوا، وإنه يدخل علينا، وإنّي أظنُّ أن في

(١) ولا يظن ظان أنّ عمر كان أغير من النّبيّ ﷺ، ولكن النّبيّ ﷺ ما كان يفعل شيئًا إلاّ بوحي من الله عز وجل.

نفس أبي حذيفة من ذلك شيئًا. فقال النَّبيّ ﷺ: «أرضعيه تحرمي عليه، ويذهب الذي في نفس أبي حذيفة» فرجعت فقالت: إني قد أرضعته، فذهب الّذي في نفس أبي حذيفة»(١).

وعن أسماء بنت أبي بكر ﵄ قالت: تزوّجني الزّبير وماله في الأرض من مالٍ ولا مملوك ولا شيء غير ناضح وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه وأستقي الماء وأخرز غربه وأعجن، ولم أكن أُحسن أخبز، فكان يخبز لي جارات من الأنصار، وكنّ نسوة صدق، وكنت أنقل النَّوَىٰ من أرض الزّبير الّتي أقطعه رسول الله ﷺ علىٰ رأسي، وهي مني علىٰ ثلثي فرسخ، فجئتُ يومًا والنّوىٰ علىٰ رأسي، فلقيتُ رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار فدعاني، ثمّ

---

(١) رواه مسلم (١٤٣٥)، ومسألة إرضاع الكبير فيها خلاف بين أهل العلم، وتفصيل ذلك يطول ولا يسع المقام لذكره؛ فمن أراده فليراجعه في كتب الفقه.

قال: «إخ، إخ» ليحملني خلفه، فاستحييتُ أن أسير مع الرجال، وذكرتُ الزُّبير وغيرته، وكان أغير النّاس فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييتُ فمضىٰ، فجئتُ الزُّبير فقلتُ: لقيني رسول الله، وعلىٰ رأسي النّوىٰ ومعه نفر من أصحابه فأناخ لأركب فاستحييتُ منه وعرفتُ غيرتك، فقال: والله لحملك النّوىٰ كان أشدّ عليَّ من ركوبك معه. قالت: حتىٰ أرسل إليَّ أبو بكر بعد بخادم تكفيني سياسة الفرس»(١).

فكان الزُّبير بن العوام أيضًا شديد الغيرة علىٰ نسائه، ولمّا تزوّج عاتكة، كانت تخرج إلىٰ الصّلاة فكان يكره ذلك ويغار عليها مع أنها مشهود لها بالفضل والصّلاح، فتخبأ لها ذات يوم ووضع يده

---

(١) متفق عليه من حديث أسماء.

عليـهـا، فـأسـرعت راجـعـة إلىٰ البيت، وسبـقـهـا هو فقـال: ما الذي أرجعك؟ قالت: كنّا نخرج والناس ناس، أمّا الآن فلا، ولم تخرج بعدها.

فـهـذه امرأة مشهود لها بالفضل، ودليل ذلك أن تزوجها قبله محمد بن أبي بكر، ثم من بعد محمدٍ عمرُ بن الخطاب، فانظر امرأةً بهذا الصّلاح ومع ذلك يغار أن تخرج إلىٰ المسجد لأداء الصلاة، فكيف لو رأيت يا زبير نساءنا كيف يخرجن، ولماذا يخرجن.

صور من غيرة السلف

وعلىٰ هذا الخلق مضىٰ سلف الأمة، ولم يتنازلوا عنه أو يفرّطوا فيه، حتّىٰ في فترات الضّعف والهوان الّتي مرّت بها الأمة الإسلامية، وحينما احتلّ الصّليبيون بعض بلاد المسلمين في الشام ودام احتلالهم لها قرابة قرنين من الزمان – وهي فترة قد تلقي في بعض النفوس الظّنّ أنهم باقون أبدًا حتىٰ ينزل عيسىٰ عليه السلام في آخر الزمان –.

سجّل المؤرخون في تلك الفترة أنّ المسلمين كانوا ينظرون إلىٰ النّصارىٰ علىٰ أنهم دياييث، يكون الواحد منهم سائرًا مع زوجته في الطّريق، فتلتقي بصديق لها، فيتنحّىٰ الزّوج ليتيح للمرأة أن تتحدث مع صديقها ما شاء من الحديث.

وفي عهد المعتصم كشف الصليبيون عن سوأة امرأة مسلمة، فقالت: وامعتصماه، فسمعها رجل من المسلمين، فقال: والله لأبلّغنّها المعتصم، فدخل عليه وكوب الماء في يده يريد أن يشرب، فقال له: إنّ الصّليبيين كشفوا عن سوأة امرأة مسلمة، فقالت: وامعتصماه. والمعتصم لا يعرف هذه المرأة، ولا يعرف الرجل الّذي حمل إليه الكلمة، ولكنه أخذته الغيرة علىٰ دينه وعلىٰ أعراض المسلمين، فقال للخادم: احتفظ بهذا الماء حتىٰ أجيء، ووضع الكوب علىٰ المنضدة وجرّد الجيش العَرَمْرَم(١)، وفتح عمّوريّة، وهي أقوىٰ مدن الروم في ذلك الوقت، ولقد مدحه أبو تمّام ببائية رائقة رائعة، والّتي مطلعها:

السّيف أصدق إنباءً من الكتب

في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

---

(١) العرمرم: الشّديد، وجَيْش عرمرم: كثير.

وأشار إلىٰ استغاثة المرأة بالمعتصم بقوله:

لبيت صوتًا زبطريًا هرقت له

كأس الكرىٰ ورضاب الخرد العرب

وزبطريًا: نسبة إلىٰ زِبَطْرَة، وهي بلد المرأة الّتي قالت: وامعتصماه.

وقد ذكر الحميدي في تاريخه أنه في سنة (٨٨هـ) كانت هناك سفينة عربية قادمة من جزيرة الياقوت ببلاد سيلان، وعليها نساءٌ مسلمات قد مات آباؤهن ولم يبقَ لهنّ راعٍ هناك، فقررن السّفر للإقامة في العراق، ورأىٰ ملك سيلان في ذلك فرصة للتقرب إلىٰ العرب، فوافق علىٰ سفرهنّ، بل حمّل السّفينة أيضًا بهدايا ثمينة إلىٰ الحجّاج والخليفة الوليد بن عبد الملك، وبينما كانت السّفينة في طريقها إلىٰ البصرة مارّة بميناء الديبل ببلاد السّند

خرج قراصنة من السند، واسْتولوا عليها بما فيها فنادت امرأة منهنّ وكانت من بني يربوع: يا حجّاج.

وبلغ الحجاج ذلك فقال: لبّيك.

فأرسل إلىٰ داهر - وهو ملك بلاد السّند - يسأله تخلية النّسوة، فقال: إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهن (وكان كاذبًا في ذلك) فكان ذلك سببًا في أن الحجاج بن يوسف الثّقفيّ أرسل جيشًا لفتح بلاد السند وتخليص هؤلاء النّسوة، ولقد تمّ ذلك ولله الحمد والمنّة، وقتل داهر ملك السّند.

ولقد ورد في كتاب نفح الطّيب أنه جاء في أخبار الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل وكان ملك الأندلس سنة (١٨٠ هـ) أنّ العبّاس الشّاعر توجّه إلىٰ الثّغر، فلمّا نزل بوادي الحجارة سمع امرأة تقول: واغوثاه بك يا حكم، لقد أهملتنا حتىٰ تكالب

العدو علينا، فأيَّمنا وأيتمنا، فسألها عن شأنها، فقالت: كنت مقبلة من البادية في رفقة، فخرجت علينا خيل عدو، فقتلت وأسرت؛ فصنع قصيدته الّتي مطلعها:

تململت في وادي الحجارة مسئدا
أراعي نجومًا ما يرون تغيرا
إليك أبا العاصي نضت مطيتي
تسير بهم ساديًا ومُهَجّرا
تدارك نساء العالمين بنصرة
فإنّك أحرىٰ أن تغيث وتنصرا

فلما دخل عليه أنشده القصيدة، ووصف له خوف الثغر، واستصراخ المرأة باسمه، فأنف ونادى في الحين بالجهاد والاستعداد، فخرج بعد ثلاث إلىٰ

وادي الحجارة ومعه الشّاعر وسأل عن الخيل الّتي أغارت من أي أرض العدو كانت، فأعلم بذلك، فغزا تلك الناحية وأثخن فيها، وفتح الحصون، وخرّب الدّيار، وقتل عدداً كثيراً، وجاء إلىٰ وادي الحجارة فأمر بإحضار المرأة وجميع من أُسِرَ له أحد في تلك البلاد، فأحضر، فأمر بضرب رقاب الأسرىٰ بحضرتها، وقال للعباس: سلها، هل أغاثها الحكم؟

فقالت المرأة – وكانت نبيلة – : والله لقد شفىٰ الصدور، وأنكىٰ العدو، وأغاث الملهوف، فأغاثه الله! وأعزّ نصره!.

فارتاح لقولها، وبدا السرور في وجهه، وقال:

أَلَمْ تَرَ يا عبّاس أني أجبتها

علىٰ البعد أقتاد الخميس المظفرا

فأدركت أوطاراً وبردت غلة

ونفست مكروباً وأغنيت معسراً

فقال عباس: نعم، جزاك الله خيراً عن المسلمين.

وذكر ابن كثير في «البداية والنهاية»: أنه في سنة (٥٦٤هـ) طغت الفرنج بالديار المصرية، وتحكّموا في أموالها أفواجًا أفواجًا، وجعلوا الوزير شاور لهم بها، ولقد أمر النّاس أن يحرقوا مصر، وأن ينتقل منها إلىٰ القاهرة، فنهبوا البلد، وذهب للناس أموال كثيرة جداً، وبقيت النّار تعمل في مصر أربعة وخمسين يومًا، فعند ذلك أراد العاضد (الخليفة الفاطمي الشيعي) أن يستنجد بأهل السُّنّة، ولكن كيف يفعل ذلك، وهو الّذي أنزل علىٰ السُّنَّة في مصر صنوف العذاب، لم يجد إلاّ أن يُحرك الحمية والغيرة علىٰ نساء المسلمين في نفوس أهل السُّنَّة، فماذا

فعل؟ أرسل العاضد إلىٰ نور الدين محمود رسالة استنجاد أرفقها بأبلغ نداء، وأرفقها بخصلة من شعور نسائه، واستغاثه قائلاً:

استنقذ نسائي من أيد الفرنج.

وكان أن بلغ التأثير مداه في قلب نور الدين، فسرت حميا الغيرة والنخوة في جند الشّام وأهله، فبذلوا لإنقاذ مصر من الصليبيين بقيادة أسد الدّين شيركوه، وصلاح الدين الأيوبيّ.

وذكر العلاّمة محمود شاكر في تاريخه أنّ الإيطاليين عندما احتلوا ليبيا عملوا فيها أعمالاً وحشية من قتل الرجال صبراً أمام ذويهم، وانْتُهِكَت حُرُمات المساجد، ودِيست المصاحف بالأقدام أما عن صنيعهم مع المسلمات، فحدّث ولا حرج، سُبيت العذارىٰ، وصُلِبَ أكثرهنّ وهُنّ عاريات.

بنات المسلمين هنا سبايا

وشمس المكرمات هنا تغيب

تبيت كريمة ليلىٰ وتصحو

وقد ألغىٰ كرامتها الغريب

تُخبّئ وجهها يا ليت شعري

بماذا ينطق الوجه الكئيب

هنا انتفض عمر المختار؛ ليخلّص هؤلاء النّسوة، ودخل في جهاد مستميت مع الجنود الإيطاليين، واستمرّ في جهاده نحو عشرين عامًا ثُمَّ أسروه وأعدموه أمام شعبه فرحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

فصل

في بيان أنّ الغيرة من الصفات التي تفتش عنها المرأة في زوجها

الغيرة من الصفات الّتي تُزيد الرجل كمالاً وبهاءً في عين المرأة؛ لأنّها من كمال الرجولة والفحولة؛ ولذلك فالمرأة العاقلة سليمة الفطرة تُفتّش عن هذه الصفة في زوجها، وتُحبُّ أن تراها فيه، فإن لم تجدها أو وجدتها ناقصة سقط من عينها، ولا ترفع له شأنًا ولا تعرف له قدراً، ولنذكر في ذلك خبراً من أخبار الجاهليين الّذين سلمت فطرتهم.

فلقد ذكرأبو علي القالي في كتابه «الأمالي» أنّ عتبة بن ربيعة قال لابنته هند قبل زواجها من أبي سفيان بن حرب وهو يصف لها رجلان أرادا

خطبتها، وقد اشترطت هند عليه قبل ذلك ألاَّ يزوجها رجلاً حتَّىٰ يعرضه عليها، فقال في وصف الثَّاني كالمادح له: وأمّا الآخر ففي الحسب الحسيب، والرأي الأريب، بَدْر أروميَّة، وعز عشيرته، يؤدب أهله ولا يؤدبونه، إنِ اتّبعوه أسهل بهم، وإن جانبوه توعّر عليهم، شديد الغيرة، سريع الطيرة... إلخ.

وقد وصف الأول بصفات حسنة أيضًا لم أذكرها إيثاراً لعدم الإطالة.

فرفضت الأوّل، ثمّ قالت: وأمّا الآخر فبعل الحرة الكريمة، إني لأخلاق هذا لوامقة، وإني له لموافقة، وإني لآخذة بأدب البعل مع لزوم قبتي، وقلّة تلفّتي، وإن السّليل بيني وبينه لحري أن يكون المدافع عن حريم عشيرته.. إلخ، فقال: ذاك أبو سفيان (١).

---

(١) نقلاً عن كتاب «الأمالي» لأبي علي القالي، بتصرف.

الحال المزرية في أزمنة الغربة الثانية

أمّا في هذه الأزمنة - أزمنة الغربة الثانية - تبدّلت المفاهيم، وانتشرت الرذائل، وماتت النخوة والغيرة عند كثير من المسلمين، وسبب ذلك هو موجة التغريب العارمة الّتي أغرقت بلاد المسلمين، والّتي روّج لها أُناس من جلدتنا، ويتكلمون بلساننا، ولقد صدق فيهم قول الشيخ محمد الغزالي: إنّ هناك أشخاصاً يمشون في سراديب الحضارة المعاصرة، كما تمشي الكلاب والفئران، لا تعرف إلاّ الفضلات والفضول، سمعت أحدهم يصيح: نحن بحاجة إلىٰ نهضة مسرحية، وآخر يقول: يجب اعتناق المادية الجدلية. وآخر يقول: نشطوا الألعاب الرياضية، وسمعت دابة تشتغل - للأسف - بالسياسة العامة،

تقول: لنترك ماضينا كله. نتركه ونتبع ماذا أيها الحيوان الأنيق؟!.

فهؤلاء يمكرون الليل والنهار؛ ليظهروا الغرب علىٰ أنهم أهل المدنية والحضارة، فأدّىٰ ذلك إلىٰ اتّباعهم وتقليدهم، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «لتتَّبِعُنَّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعًا بذراع، حتَّىٰ لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم» قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارىٰ؟ قال: «فمن؟»(١).

فترىٰ الرجل يترك زوجته تخرج متبرجة علىٰ أقبح ما يكون، ترتدي ثيابًا ضيقة تحجم عورتها، شفافة تُظهر جسدها، فتُصبح كأنها عارية؛ مصداقًا لقول النَّبيّ ﷺ: «صنفان من أهل النّار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر، ونساء كاسيات عاريات

---

(١) متفق عليه.

مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإنّ ريحها يوجد من مسيرة كذا وكذا» (١).

وأسفاه لقد ماتت الغيرة، وماتت الرجولة، وتحلل المسلمون من أخلاقهم الحميدة حتّىٰ حق لنا أن نقول: يحكىٰ أنه في سالف الزمان كان هناك من الناس فئام، اعتنقوا شيئًا اسمه الإسلام، وكانوا يعيشون علىٰ عفة ودين وطهارة وسلوك قويم.

لقد صارت الدّياثة وبلادة المشاعر سجية لدىٰ القوم، والحمية والغيرة رجعية وعيبٌ مشين ينبغي أن يُستأصل من جذوره.

وإنّ مظاهر التفريط في الغيرة كثيرة جداً في هذا الزمان، ولكن قبل أن نذكرها نذكر فصلاً في غيرة الحيوانات لنعلم قدر ما نحن فيه من البلاء.

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رقم (١٢٥).

فصل

في غيرة الحيوانات

ونحن نأسف أسفًا بالغًا علىٰ أن نذكر الحيوانات فيما نحن بصدده، ولكن قد يكون في هذا وخز للضمير، وتقريع للحس، وتنبيه للعقل، فإنّ الإنسان الحرّ الأبيّ الشّريف الفاضل إذا ضرب له المثل بالدون أنف من ذلك ولم يرضَ أن ينزل إِلَىٰ مرتبة دونيّة.

وكما قال أبو الطّيّب المتنبي:

ولعلّ عتبك محموداً عواقبه

فربّما صحّت الأجسام بالعلل

وقال ابن المقفع في كتاب «كليلة ودمنة»: «قال الفيلسوف: أيّها الملك إنّ طبائع الخلق مختلفة، وليس مما خلقه الله في الدُّنيا مما يمشي علىٰ أربع أو

علىٰ رجلين أو يطير بجناحين شيء هو أفضل من الإنسان، ولكن من النّاس البرّ والفاجر، وقد يكون في بعض السباع والبهائم والطير ما هو أوفىٰ منه ذمة، وأشد محاماة علىٰ حرمه وأشكر للمعروف، وأقوم به».

ومعنىٰ ذلك: أنّ بعض الحيوانات قد تكون أفضل من بعض الآدميين في أخلاق معينة، ويشهد لهذا المعنىٰ قول الله – سبحانه وتعالىٰ – : ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤].

ونرجع إلىٰ ما أردنا أن نستشهد به وهو خبر أورده البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون قال: «رأيت في الجاهلية قِرْدة اجتمع عليها قِرَدَة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم».

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: ولقد ساق

الإسماعيلي هذه القصة مطولة من طريق عيسىٰ بن حطان عن عمرو بن ميمون قال: «كنت في اليمن في غنم لأهلي، وأنا علىٰ شرف فجاء قرد مع قردة فتوسد يدها، فجاء قرد أصغر منه فغمزها فسلت يدها من تحت رأس القرد الأول سلا رفيقًا وتبعته، فوقع عليها، وأنا أنظر، ثُمَّ رجعت، فجعلت تُدخل يدها تحت خد الأول برفق، فاستيقظ فزعًا، فشمّها فصاح، فاجتمعت القرود فجعل يصيح ويومئ إليها بيده، فذهب القرود يمنة ويسرة، فجاءوا بذلك القرد أعرفه، فحفروا لهما حفرة فرجموهما، فلقد رأيت الرجم في غير بني آدم».

فهذا حيوان بهيم لا عقل له، ولكنّه تحركت فيه داعية الفطرة، وغار علىٰ عرضه وأبىٰ وأنف أن يشاركه غيره في أنثاه ولم يتحمل هذا، وأيضًا لم

يرضَ بقية القرود بذلك؛ لذلك أقامُوا حدّ الرجم عليهما، والذي فُرِض علىٰ أهل الكتاب فعطّلوه، وفُرِض علىٰ المسلمين فعطّلوه أيضًا، بل جعلوا الزّنا حرية شخصية، ولا شيء علىٰ فاعله طالما كان بالتراضي ولم يكن في الطريق العام، ونسأل الله عز وجل السّلامة، وأن لا يؤاخذنا بما فعل السُّفهاء منّا.

فهذا الحيوان البهيم - مع الأسىٰ البالغ والأسف الشديد - عنده من النخوة والحمية ما لا يوجد عند كثير من بني آدم، بل ما لا يوجد عند كثير ممن ينسبون أنفسهم إلىٰ الإسلام اليوم.

وليس القرد الحيوان الوحيد الذي يتّصف بخلق الغيرة، بل يوجد الكثير من الحيوانات تغار علىٰ أعراضها.

أيرضىٰ عاقل أو أحد عنده أثارة من نخوة أو بقيّة

من رجولة أن ينزل عن مرتبة بعض الحيوانات ولا يغار علىٰ عرضه ولا يحافظ علىٰ نسائه؟!.

ونقول للَّذي لا يريد أن يرتفع إلىٰ مستوىٰ دينه ويتأسىٰ بالنّبيّ ﷺ أو الصّحابة والسّلف، لا أقل أن تتأسىٰ بأهل المروءة من الجاهليين وغيرهم ممن سلمت فطرتهم.

فإن لم يتأسَّ بهم نقول له: لا تنزل عن مرتبة هذه الحيوانات البهيمة الّتي تغار علىٰ أعراضها، حتّىٰ لا تكون هي أفضل منك، والحيوانات الّتي لا غيرة لها علىٰ أعراضها هي الحيوانات الّتي يضرب بها المثل في الخِسَّة وضآلة القدر، كالكلب والخنزير، فإنّهما يُعرفان بعدم الغيرة، ويُرىٰ أنّ انعدام الغيرة عند الغربيين بسبب أكلهم للخنازير ومخالطتهم للكلاب.

وإنّ أذكياء بني آدم يمدحون بعض الحيوانات، ويقدمونها علىٰ غيرها في مقام الجدل والمناظرة لاتّصافها بالغيرة، ويذمّون البعض الآخر لعدم اتّصافه بالغيرة، فهذا الجاحظ يقول في كتابه «الحيوان» في ذكر محاسن الدّيك : « . . قال جعفر: . . وهو بعد غيور يحمي دجاجته، وقال الراجز:

يغار والغيرة خلق في الذكر.

وقال الآخر: والفحل يحمي شوله معقولا» .

وقال في باب مساوئ الحمام: «الحمام طائر لئيم، وإن برّ يزعمكم ولد غيره وصنع به كما يصنع بفرخه» إلىٰ أن قال: «وأما لؤمه في طريق الغيرة، فإنه يرىٰ بعينه الذكر الّذي هو أضعف منه، وهو يطرد أُنثاه، ويكسح بذنبه حولها، ويتطوس لها ويستميلها وهو يرىٰ ذلك بعينه. . .».

فإذا كان الحيوان البهيم الذي لا عقل له يمدح لاتّصافه بالغيرة ويُذمّ لعدم اتّصافه بها، فإنّ بني آدم أولىٰ بأن يمدحوا ويذمّوا لاتّصافهم أو لعدم اتّصافهم بالغيرة علىٰ نسائهم.

فأين غيرتك يا من تركت نساءك من زوجة أو ابنة أو أخت تخرج متبرجة متعطرة تخرج لتعرض جسدها ومفاتنها علىٰ النّاس، تخرج بملابس يندىٰ لها الجبين حياءً وتسودّ لها الوجوه حزنًا وخزيًا، تخرج لتكون مسرحًا للأعين فيتغزل فيها هذا ويجرحها بكلماته هذا، وآخر قد يقع في عشقها فيظل يفكر فيها ليل نهار، ويترصدها كل يوم ليراها ويتغزل فيها.

إنَّ الرجل عندما ينظر إلىٰ المرأة ويتغزل فيها، أو يشم منها رائحة الطّيب فإنه بذلك يكون قد نال

نوعًا من الاستمتاع بها، بل إنّ النّبيّ ﷺ قد وصف النظرة المحرمة بالزنا، فقال: «إنّ الله كتب علىٰ ابن آدم حظّه من الزنا، فهو مدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النّظر، وزنا اللسان المنطق، وزنا اليد البطش، والنّفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» (١).

وأيضًا وصف النّبيّ المرأة الّتي تتطيّب ثُمَّ تمرُّ علىٰ قوم ليجدوا ريحها بأنّها زانية، وكل عين نظرت إليها زانية، فقال: «أيّما امرأة استعطرت فمرّت علىٰ قوم ليجدوا ريحها، فهي زانية، وكل عين زانية» (٢).

فهل أيّها العاقل ترضىٰ لأهلك هذا؟ أترضىٰ أن يُشاركك غيرك في أهلك؟ ألَمْ تسمع قول الشّاعر الَّذي ترك حب امرأة؛ لأنه علم أن غيره يشاركه في حبها فقط، فقال:

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة.

(٢) [illegible]

سأترك حبّكم من غير بُغْضٍ

وذاك لكثرة الشركاء فيه

إذا وقع الذباب علىٰ طعام

رفعتُ يدي وأنا أشتهيه

وتجتنب الأسود ورود ماء

إذا كان الكلاب يلغن فيه

إنّ الحرّ لا يرضىٰ أن يشاركه غيره في زوجته، ولو بالتّفكّر فيها أو النّظر إليها.

ولذلك لما امتنّ الله علىٰ عباده المؤمنين وذكر ما أعده لهم في جنّات النّعيم قال عن حور الجنة ونسائها: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢)﴾ [الرحمن: ٧٢]، وقال أيضًا سبحانه: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وقال أيضًا: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ

مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات : ٤٩]. وقال أيضًا : ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الواقعة : ٢٣].

فصل

في بيان مظاهر التفريط في الغيرة

وإليك - أخي القارئ - صوراً من صور التّفريط في الغيرة والتقصير فيها، والّتي انتشرت انتشاراً كبيراً بين عموم المسلمين، وهي:

١ - ترك الرجل امرأته تُسافر بلا محرم:

وهذا أمر خطير جداً؛ فإنّ المرأة ضعيفة، وقد تتعرض لأذىً من بعض الفسّاق، وما أكثرهم في زماننا، ولا تستطيع أن تحمي نفسها أو قد تفتن لاسيّما أنها ليس عليها رقيب، ولا يوجد أحد يعرفها في بلد هي غريبة عنها، والمرء لا يستحي في بلد الغربة ممّا قد يستحي منه في بلده ووطنه؛ لذلك منع النّبيُّ ﷺ المرأة من أن تسافر بلا محرم،

حتىٰ وإن كان سفرها لأداء فريضة الحج، فلقد جاء عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «لا يخلونَ رجل بامرأة إلاّ ومعها محرم، ولا تسافر المرأة إلاّ مع ذي محرم» فقام رجل، فقال: يا رسول الله، إنّ امرأتي خرجت حاجّة، وإنّي اكتتبتُ في غزوة كذا وكذا، فقال ﷺ: «انطلق فحجّ مع امرأتك» (١).

فهذا رجل خرج؛ ليجاهد في سبيل الله، فأمره النّبيّ ﷺ أن يعدل عن الجهاد؛ كي يرافق امرأته الّتي خرجت في سفر فاضل، ومع رفقة تقصد بيت الله الحرام، ثُمَّ إنّها قد خرجت ومضت ومع هذا كله قال النّبيّ ﷺ: «انطلق فحجّ مع امرأتك»، فالمرأة في حاجة شديدة إلىٰ من يحميها، ولقد رُويَ عن عمر: «ما بال أحدكم ثاني وساده عند امرأة مُغَزِّبَةٍ مغيبة؟! إنّ المرأة لحم علىٰ وضم إلاّ ما ذبّ عنه».

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٢ - ترك الرجل نساءه يُصافحن الرجال الأجانب:

وهذا أمر عمّت به البلوىٰ، وصار أمر عادي من خالفه اتُّهم بالتّزمّت والتّشدد والرجعية وعدم الذوق، ولقد قال النّبيّ ﷺ: «لئن يُطعن أحدكم بمخيط من حديد في رأسه خير له من أن يمس امرأة لا تحلّ له» (١).

وقال أيضًا ﷺ: «واليدُ تزْني وزناها البطش»(٢).

والبعض قد يدّعي أن نساءه طاهرات القلب، وكذلك من يصافحونهن، فنقول له: إنّ أطهر ولد آدم - وهو النّبيّ ﷺ - لم يكن يصافح النّساء، وقال: «إنّي لا أُصافح النّساء» (٣).

---

(١) رواه الطبراني عن معقل بن يسار، وقال الألبانيّ في صحيح الجامع: صحيح.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أميمة بنت رقيقة، وقال الألباني في صحيح الجامع: صحيح.

وامتنع عن ذلك عند بيعة النّساء، ومن المعلوم أنّ البيعة تقتضي عادة المصافحة وهو أمر جرىٰ عليه العرب، بل أكثر النّاس عليه، ومع ذلك امتنع عنه النّبيُّ ﷺ. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: **«لا والله، ما مسّت يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، غير أنه يُبايعهن بالكلام»**(١).

وهذا حديث عام، فلا يجوز مصافحة الكبيرة أو الشابة، وينبغي أن يُعلم أن وضع الحائل أو المصافحة من وراء ثوب لا تُغني شيئًا فهو حرام في الحالين.

ثم نقول: من أين للمرء أن يعلم نيّات الآخرين، فإن علم ذلك راجع إلىٰ الله عز وجل، وهو الّذي قال في كتابه العزيز: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢)﴾ [النجم: ٣٢].

---

(١) رواه ابن ماجه وأخرجه البخاري في الطلاق ومسلم في الإمارة.

ثمّ نقول للذي لا يتأثر بشيء عند مصافحة النّساء، إمّا أنّك كذّاب في دعواك، أو أنك تنادي علىٰ نفسك بنقص الرجولة والفحولة، وإن لم يكن هذا ولا ذاك فإنّ الشّرع لم يعلق الحكم علىٰ التأثر أو عدمه، ثُمَّ إنّ الشَّرع جاء لجميع النّاس.

٣- دخول الأجانب علىٰ النساء والخلوة بهنّ خاصة الأقارب:

وهذا أمر وضوح مفاسده تغني عن ذكرها، ويكفي فيه حديث عقبة بن عامر عن النّبيّ ﷺ أنه قال: «إيّاكم والدخول علىٰ النساء» قالوا: يا رسول الله، أرأيت الحمو؟ قال: «الحمو الموت»(١).

والمقصود: أنّ الحمو - وهو قريب الزوج أو الزوجة - يُفسدُ العلاقة الزوجيّة كما يُفسد الموت البدن.

---

(١) سبق تخريجه.

وقال النّبيّ ﷺ: «لا يخلونّ رجل بامرأة إلاّ كان الشيطان ثالثهما»(١).

فما الظّنُّ إذن برجل يخلو بالمرأة، وهو عنده ميل طبيعي لها، وكذلك المرأة عندها ميل طبيعي للرجل، ثمَّ إنّ النّفس البشريّة أمّارة بالسّوء، ثمّ إنّ الشيطان ثالث لهما.

ولا يظنّ أحد أن امرأته كمريم - عليها السّلام - أو أنّ الرجل الّذي يخلو بها كيوسف عليه السلام في العفة والطّهارة، بل نقول: لو كان عندهما وازع ديني ما اختليا وخالفا أمر الله تبارك وتعالىٰ وأمر النّبيّ ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وهذه الآية في نساء النّبيّ وهنّ أطهر نساء الأمة

---

(١) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه عن ابن عمر، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

وأمّهات المؤمنين، فغيرهنّ أولىٰ وأولىٰ بعدم دخول أحد عليهن.

٤ - ترك الرجل نساءه يُشاهدن الأفلام والمسلسلات ويستمعن إلىٰ الأغاني:

من المعلوم لدىٰ الجميع أنّ ما يعرض علىٰ شاشات التلفاز من أفلام ومسلسلات وأغانٍ مخالف تماماً لتعاليم الدّين، بل منها ما يحارب تعاليم الدّين ويصدُّ عنها.

فنقول: يا رجال الأمة، كيف تتركون نساءكم يُشاهدن العهر والفجور ويستمعن إلىٰ كلمات العشق والغرام من رجال أجانب؟!.

وقد ترىٰ المرأة رجلاً أجمل من زوجها وأعذب كلاماً منه، وتستمع إلىٰ أغانيه وآهاته وهو يتغزّل في محبوبته، أو يشتكي فراقها، والخطير في الأمر أن

تقع المرأة في عشق ممثل معين أو مغنٍ، وهذا كثير جداً ما يقع، بل هناك من النساء من تخبر زوجها بأنّها تحب الممثل الفلاني أو يعجبها الممثل الفلاني، أو أنها تستمتع بصوت المغني الفلاني، ولقد قال يزيد بن الوليد: الغناء مفتاح الزنا.

ومن أمثال العرب: الغناء رقية الزنا.

وهذا غيض من فيض من مظاهر الفساد في هذا الأمر، وإلاّ فمفاسده كثيرة جداً، وهناك أمور لا أريد أن أرسمها بالقلم، وإنّها لتطرح في قلبي الألم، وفهم الذكي يملي عليه ما لم أُبيّنه.

٥ - ترك الرجل نساءه يُحادثن الرجال بصوت رقيق إمّا مباشرة أو عن طريق الهاتف:

فإنّ هذا الصوت قد يتأثر به الرجل، ولقد عرفنا عن بعض الرجال أنهم وقعوا في حب نساء لسماع

أصواتهن عبر الهاتف فقط دون أن يشاهدونهن؛ لذلك حذّر الله النّساء من الخضوع بالقول، فقال: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وقال بشّار بن برد الشّاعر العبّاسي - وكان أعمى -:

يا قوم أذْني لبعض الحيّ عاشقة

والأذنُ تعشقُ قبل العين أحيانا

ولكن مع هذا نقول: إنّ المرأة لها أن تحادث الرجال للحاجة، وعلىٰ قدر هذه الحاجة وعليها أن تكون منضبطة بالضّوابط الشّرعيّة.

٦ - أن يصف الرجل زوجته للرجل أو يدخل عليها من يعلم أنه قد يفعل ذلك:

فإنّ هذا الوصف قد يعلق بها قلوب بعض الرجال، وقال ابن شجنة الموصلي:

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم

سمعت بها، والأذن كالعين تعشق

وقال ابن القيم - في وصف أهل الغيرة - : «وكان بعضهم يمتنع من وصف محبوبه، وذكر محاسنه خشية تعريضه لحب غيره له، كما قال علي ابن عيسىٰ الرافقي:

ولستُ واصفًا أبدًا خليلاً

أعرضه لأهواء الرجال

وما بالي أشوق قلب غيري

ودون وصاله ستر الحجال

وكثير من الجهّال وصفَ امرأته ومحاسنها لغيره، فكان ذلك سببًا في فراقها له واتّصالها به.

وقال في موضع آخر: فكثير من الناس يحب غيره

ويفنى فيه محبة، وما رآه ولكن وُصف له، ولهذا نهى النَّبيُّ ﷺ المرأة أن تنعت المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها، والحديث رواه البخاري» اهـ.

قلتُ: والوصف أيضًا قد يجعل الرجل يتطلّع لرؤية المرأة فيحتال لرؤيتها لاسيما إذا وقع في حبها، وقال الشّاعر:

وصفوها فلم أزل علم اللـ

ـه كئيبًا مستولها مستهاما

هل عليها في نظرة من جناح

من فتى لا يزور إلاّ لماما

٧ - أن يسافر الرجل ويترك زوجته لفترة طويلة:

وهذا قد يؤدي بها إلى الافتتان فإنّ المرأة تحتاج إلى زوجها وقد لا تصبر على فراقه مدة طويلة.

والمرأة قد لا ترعىٰ أمانة زوجها إذا غاب عنها فترة طويلة، وقال الشّاعر:

أَعُليٌّ ما ماء الفرات وبرده

منى علىٰ ظمإ وفقد شراب

بألذّ منك وإن نأيتُ وقلّما

يرعىٰ النّساء أمانة الغُيَّاب

فإما أن يقصر مدّة السّفر أو يأخذ زوجته معه، ولا يمنعه من ذلك كثرة النفقة فإنّ الحفاظ علىٰ الزوجة لا يُقدّر بمال.

ولقد روىٰ الإمام مالك في الموطأ عن عمرو بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه

وأرقني ألا خليل ألاعبه

فـوالله لولا الله أني أراقـبـه

لحرّك من هذا السّرير جوانبه

فسأل ابنته حفصة عن أكثر مدة تصبر فيها المرأة عن زوجها، فقالت: ستة أشهر أو أربعة أشهر، فقال: لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك».

٨ - ترك الرجل زوجته تخرج متبرجة متعطرة للعمل الّذي يختلط فيه الرجال بالنساء:

وهذا الأمر من أخطر مظاهر التفريط في الغيرة، بل هو أخطرها علىٰ الإطلاق؛ لأنّ طبيعة العمل الّذي لا ينبني علىٰ أسس شرعية يستدعي أن تختلط المرأة بالرجل، وقد يجلس معها مدةً طويلة، ومن المعلوم أنّ طول العشرة يُذهب الحشمة، ويدعو للأنس، فرجل يجلس مع امرأة مدةً طويلة ويحادثها وتحادثه، أليس هذا مدعاة للوقوع في الفاحشة أو علىٰ الأقل

حصول العشق بينهما، ولَقَدْ قيل لامرأة شريفة زنت بعبد لها: لمَ زنَيْتِ؟ قالت: لطول السّواد وقرب الوساد، تعني أنّ المكان الّذي ينام فيه قريب من مكانها، فمع أنّها شريفة وهو عبد لها، إلاّ أنها مكّنته من نفسها.

وقال الشّاعر:

وأعظم ما يكون الشوق يومًا

إذا دنت الخيام من الخيام

وقال مجنون ليلىٰ (قيس بن الملوح):

أمرّ علىٰ الدّيار ديار ليلىٰ

أُقبّلُ ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الدّيار شغفن قلبي

ولكن حبّ من سكن الدّيار

فإذا كانت رؤية الدّيار تهيّج مشاعر الحب فما الحال إذن إذا رأىٰ الرجل المرأة نفسها.

وإنّ رؤية الرجل للمرأة مدعاة لوقوع الألفة والمحبة بينهما؛ لذلك قال النّبيُّ ﷺ لمن أراد أن يخطب امرأة أن ينظر إليها، وعلل ذلك بحصول الألفة، فقال ﷺ: «إذا خطب أحدكم امرأة فلينظر إلىٰ ما يدعوه إلىٰ نكاحها؛ فإنّه أحرىٰ أن يؤدم بينهما» (١).

فالنّظر إلىٰ المرأة ليس بالأمر الهيّن؛ ولذلك قال النّبيُّ ﷺ لعليّ رضي الله عنه: «يا عليّ لا تُتبع النّظرة النّظرة؛ فإنّ لك الأولىٰ، وليست لك الآخرة» (٢).

وقال جرير: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة قال: «اصرف بصرك» (٣).

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، وقال الألبانيُّ: صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود، وحسّنه الألبانيُّ.

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة، برقم (١٤٦٦).

وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور: ٣٠]. فحفظ الفرج لا يكون إلاّ بغضّ البصر؛ ولذلك قيل: النظرة بريد الزّنا، وقال الشّاعر:

كل الحوادث مبدأها من النظر

ومعظم النّار من مستصغر الشّرر

ولا يشترط أن تكون المرأة علىٰ درجة عالية من الجمال حتىٰ يقع الرجل في عشقها أو يُفتتن بها؛ فإنّ الجمال وإن كان أمر تطلبه النّفس وتركن إليه إلاّ أن العشق إنّما يأتي عن تناسب الأرواح وتشاكلها، وقال الشاعر:

فكل امرئ يصبو إلىٰ ما يناسبه

وقال الآخر:

وما الحب من حسن ولا ملاحة

ولكنه شيء به الروح تَكْلَفُ

ولمّا دخلت عزة الّتي تغزّل فيها كُثَيّر(١) كثيراً وشبب بها على الحجاج، قال: والله يا عزّة، ما أراك كما وصفك كثير. قالت: يا أمير المؤمنين، إنّه رآني بعين غير الّتي رأيتني بها.

وأريد أن أقول: قد يكون بين الرجل وزوجته مشاكل والأمر لا يخلو أما زميلها فليست بينه وبينها أية مشاكل، فقد تأنس المرأة معه أكثر من زوجها، وأيضاً هي لم تطلع على عيوب زميلها، أمّا زوجها فقد اطّلعت على عيوبه، فتظنّ أنّ زميلها مبرأ من تلك العيوب، فتجد فيه ما لا تجد في زوجها، فلماذا أيّها العاقل تُعرّض زوجتك لكل هذا؟!.

٩ - خروج المرأة من بيتها بغير الضوابط الشّرعيّة:

وهذا يجعلها حديث كثير من النّاس، وأهل الفضل والمروءة يأنفون من أن يتناول النّاس نساءهم في حديثهم ويجعلون هذا من السبّة لهم.

قال الجاحظ في «البيان والتبيين»: «ودعا جرير رجلاً من بني كلاب إلىٰ مهاجاته، فقال الكلابي: إنّ نسائي بأمتهن (أي: بحالتهن) ولم تدع الشّعراء في نسائك مترقعًا (موضع الشّتم).

وخروج المرأة من بيتها متبرجة متعطرة هذا يجعل كثير من الفساق ينظرون إليها، فتكون مسرحًا لأعينهم يفتكونها بأبصارهم، ويتغزّلون فيها، وقد قال الشاعر:

يقولون لا تنظر وتلك بليّة

ألا كل ذي عينين لابد ناظر

وقال عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

وكم مالئ عينيه من شيء غيره

إذا راح نحو الجمرة البيض كالدُّمىٰ

وقال ابنُ القيِّم: قال الأصمعيّ: رأيتُ جارية في الطّواف كأنّها مهاةٌ، فجعلتُ أنظر إليها وأملأ عيني من محاسنها، فقالت: يا هذا، ما شأنك؟ قلت: وما عليك من النّظر؟ فأنشأت تقول:

وكُنْتَ متىٰ أرسلتَ طرفك رائداً
يومًا لقلبك أتعبتك المناظر
رَأَيْتَ الَّذي لا كله أنت قادر
عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

فهذا كان في عبادة من أعظم العبادات، ويشهد له بالفضل، ومع ذلك غلبته محاسن المرأة، فما حال كثير من فُسّاق زماننا الّذين ينتشرون في الطُّرُقات ليترقّبوا النّساء وينظروا إليهنّ.

١٠ - ترك الرَّجل نساءه يخرجن إلىٰ المُنتديات العامة والشَّواطئ الَّتي يختلط فيها الرجال مع النِّساء:

وهذا أمر في غاية الفساد والقبح ويتبيَّن عظم قبحه من نفي النَّبيِّ الإيمان عن الَّذي يفعل شيئًا كهذا، فلقد روىٰ الحاكم في المستدرك عن جابر ﷺ قال: قَال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فلا يُدخل حليلته الحمَام، ومن كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلاَّ بمئزر، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس علىٰ مائدة يُدار عليها الخمر». وقال صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يُخرِّجاه.

ومظاهر الفساد علىٰ الشَّواطئ لا تحتاج إلىٰ أن توضَّح فهي معروفة لدىٰ الجميع.

فصل

في أنّ من دواعي الغيرة اختيار الزوجة الصالحة

إنّ من دواعي الغيرة والأنفة أن يختار المرء زوجة صالحة، فيكون اختياره لها على أساس الدّين قبل كل شيء، فإنّ النّبيّ ﷺ قال: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها ونسبها، ولدينها، فاظفر بذات الدّين تربت يداك» (١).

وتأمّل قوله ﷺ: «اظفر» فكأنّ التّزوّج بامرأة ذات دين فوز وفلاح لا يستطيعه كل أحد، وإنّما يقع لبعض أهل الهمة العالية، والمرأة ذات الدين هي خير متاع الدنيا كما قال النّبيّ ﷺ: «الدُّنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة».

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

فالغيور يختار هذا الصّنف من النساء؛ حتىٰ تحفظه في نفسها إذا غاب عنها، فلا تخونه في شيء، ويكون مطمئنًا عليها، ولا يخاف أن تُدنِّس عرضه مع أحد، ولا تجعل أحداً يتكلم في عرضه بأذىٰ، ولقد أوصىٰ رجل من العرب ولده عندما أراد التّزوّج فقال له: «يا بُنيّ لا تتخذها حنّانة، ولا منّانة، ولا عشبة الدّار، ولا كبة القفا».

وجاء في معنىٰ كبة القفا: الّتي يأتي زوجها أو ابنها القوم، فإذا انصرف من عندهم قال رجل من جبناء القوم: قد والله كان بيني وبين امرأة هذا المولىٰ أو أمه أمر.

فالغيور يأنف أن يتكلم في عرضه أحد فلا يتزوج بامرأة كانت لها علاقة بأحد قبله أو تكون موضع التهمة أو موضع كلام الناس فيتزوج من شريفة

عفيفة غير متكلم فيها بسوء فإنّ كلام النّاس في الزوجة يُعدّ مسبّة ومنقصة لزوجها كما قيل: إنّ جريرًا دعا رجلاً من بني كلاب إلىٰ مهاجاته، فقال الكلابيّ: إنّ نسائي بأمتهن (أي بحالتهن) ولم تدع الشعراء في نسائك مترقعًا.

وقال الشّاعر:

وإن تزوّجت فكن حاذقًا
واسأل عن الغصن وعن منبته
واسأل عن الصّهر وعن أحواله
من جيرة وذي قربته

ولا يتزوّج بامرأة كثيرة الخروج والولوج؛ فإنّ هذا مذموم في المرأة، ولقد قدّمنا أدلة علىٰ ذلك فيما سبق.

وعليه أيضًا أن يُلزم زوجته بالآداب الشّرعيّة، فلا

تخرج من بيته إلاّ بإذنه، ولا تُكثر الخروج لغير حاجة مباحة، وعليه أن يُربّي بناته علىٰ العفّة والطّهارة والنّزاهة، فيحكي لهنّ قصص العفيفات؛ حتّىٰ يتأسّين بهنّ، ويُخبرهن بما ورد في الكتاب والسُّنّة من الأمر بالحجاب والتستّر والعفّة.

ولقد قال أحدهم: لا تعلموا بناتكم الكتاب ولا ترووهنّ الشعر، وعلموهن من القرآن سورة النور.

وقال آخر: بنو فلان يعجبهم أن يكون نساءهم أباضيات ويؤخذن بحفظ سورة النور.

وسورة النور هي سورة الستر والعفاف؛ فهي تدعو إلىٰ التستر وأن تلتزم المرأة بالحجاب.

ولا يدعهنّ يستمعن إلىٰ الأغاني؛ فقد قيل: الغناء رقية الزنا، وقال يزيد بن الوليد: إيّاكم والغناء؛ فإنّه مفتاح الزناء.

وعليه أن يترقب أحوالهن وينصحهن من وقت لآخر؛ فإنّه مسؤول عن أهله، كما قال النبيّ ﷺ: «والرّجل في بيته مسؤول عن رعيته»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وعليه أن يغرس في نفوسهن فضل العفة وفضل التستر، وأنّ هذا يزيد من مكانة المرأة ويرفع من قدرها، وأن التبرج والتبذّل والسّفور يحطّ من مكانتها ويفقدها قيمتها.

ولا ينسَ أنّ أول خطوة وأهم خطوة في تربية الأبناء والبنات هو اختيار الزوجة، فإن كنت تغار علىٰ بناتك فاختر زوجة صالحة، قال الجاحظ في «البيان والتبين» قال عثمان بن أبي العاص لبنيه:

---

(١) سبق تخريجه.

«يا بَنِيّ، إنّي قد أمجدتكم في أمهاتكم، وأحسنت في مهنة أموالكم، وإنّي ما جلست في ظل رجل من ثقيف أشتم عرضه، والناكح مغترس، فلينظر امرؤ منكم حيث يضع غرسه، والعرق السّوء قلّما ينجب ولو بعد حين»، فلمّا سمع ابن عباس هذا الكلام قال لغلامه: «يا غلام، اكتب لنا هذا الحديث».

وليعلم أنّ التفريط في إصلاح الزوجة وتربية البنات قد يكون سببًا في دخوله النار، ولا يوجد أحد غالٍ - علىٰ الإطلاق - يستحق أن يدخل النار بسببه، قال تعالىٰ: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾

[المعارج: ١١ - ١٤].

فصل

في بيان أن العفة من دواعي الغيرة

فإنّ من أطلق بصره إلىٰ النّساء، أو تحرّش بهن، أو تغزّل فيهن، وتكلم معهن بكلام لايجوز شرعًا خُشِيَ عليه أن تقع نساؤه في مثل هذا، ومن تعفّف عن ذلك فإنّ نساءه يتعفّفن أيضًا كذلك، ولقد رُوِيَ عَنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قَالَ: «اعمل ما شئت كما تدين تُدان»(١).

ولقد جاء في أمثال العرب: ما فجرَ غيورٌ قطّ.

يعني أنّ الغيور علىٰ عرضه وأهله لا يوقع نفسه في فاحشة؛ حتىٰ لا تقع نساؤه في مثل ما وقع فيه.

---

(١) ضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ولكن هناك أدلة تدل علىٰ أنّ الجزاء من جنس العمل، فمعنىٰ الحديث صحيح.

ولقد قال الشافعيُّ:

عفوا تعف نساؤكم في المحرم

وتجنبوا ما لا يليق بمسلم

من يَزْنِ يُزْنَ به ولو بجداره

إن كنت يا هذا لبيباً فافهم

إنّ الزنا دَيْنٌ فإنْ أقرضته

كان الوفا من أهل بيتك فاعلم

نداء إلى إخواني

إخواني في الله - عزّ وجلّ - يا من أحسبهم من الفضل والتّديّن والمروءة، هناك أمور يضيق بها صدري، وأحزن لها حزنًا شديداً وأقول في نفسي: لا ينبغي لأهل الفضل أن يقعوا في مثل هذه الأمور، والّتي تنافي الغيرة علىٰ نساء المسلمين.

وأقول لكم - ولا أجاملكم -: إنَّكم أيّها الملتزمون تُساهمون في غرس الفساد في المجتمع الإسلاميّ دون أن تشعروا.. كيف ذلك؟

أقول: كثير من أهل التّديّن والّذين نحسبهم علىٰ خير إذا تقدّم إليهم رجل مُتديّن يُريد الخِطْبة؛ فإنّهم يتركون الشّرع وراءهم ظهريًا ويعاملوه بعادات

وتقاليد المجتمع الفاسد، فيُغالون في المهور، ويُحمّلوه تكاليفًا لا يطيقها.

فاتّباع بعض الملتزمين لتقاليد المجتمع في مثل هذا يؤدي إلىٰ صعوبة الزواج، والذي قد يوقع بعض الإخوة في الافتتان، وقد يؤدي أيضًا إلىٰ تركه الالتزام بالكليّة وسلوكه مسلكًا غير شريف.

فأين الغيرة إذن علىٰ هذا المجتمع المسلم، وعلىٰ أعراض المسلمين، مشكلتنا أننا لم نؤمن إيمانًا جيدًا.

أيها الأخوة، يجب علينا جميعًا أن نيسّر أمر الزواج لمن أراد أن يتزوج؛ حتىٰ نساعد علىٰ العفة والتحصن من الوقوع في الفاحشة.

ويجب علينا أن نتبع قول النّبيّ ﷺ: «إذا جاءكم من ترضونَ دينه وخُلُقه فزوّجوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»

ونعلم أنّ النبيّ ﷺ قال أيضًا: «أكثرهنّ بركة أقلّهنّ مهراً»

وثمّة أمر آخر، وهو أنّ بعض الأخوة الأفاضل يتركون نساءهم يخرجن بالنّقاب المتبرج؛ فالمرأة قد ترتدي النّقاب، ولكنّها قد تظهر عينيها وجزءاً من الوجه، وتظنّ أنها بذلك قد فعلت ما عليها.

نقول: اعلموا أيها الأخوة أنّ النقاب الّذي على هذه الصورة يكون أكثر فتنة ممّا إذا كشفت المرأة وجهها كله؛ وذلك لأنّ المرأة قد تكون قبيحة أو ليست على درجة عالية من الجمال، فإذا لبست النقاب، وأظهرت عينيها وجزءاً من الوجه تبدو في غاية الحسن والجمال؛ فيؤدي إلى افتتان الرجال بها خاصة أهل الفضل والصّلاح.

قال ابن القيِّم في «روضة المحبِّين»:

وقال بعض الأعراب وقد نظر إلىٰ امرأة مبرقعة:

إذا بـارك الله فـي مـلـبـس

فـلا بارك الله في البـرقع

يريك عيـون المهـا مسبـلا

ويـكـشـف عن منظر أشنع

فيا أيّها الأخوة، كونوا غيورين علىٰ نسائكم ولا تتـركوهنَّ يخرجن بهذه الطريقة، وبيّنوا لهنّ أنّه ينبغي عليهنّ إذا سترن وجوههن فعليهنّ أن يسترن العينان أيضًا.

فصل

في بيان الغيرة المذمومة

وينبغي ألاّ يشتط أحد في أمر الغيرة، ولا يتجاوز بها حدّ الاعتدال؛ فخير الأمور ما كان وسطًا، فإنّ الإفراط في الغيرة قد يؤدّي إلىٰ الوسوسة وسوء الظنّ بالمرأة.

ولقد جاء في الحديث الّذي يرويه جابر بن عتيك مرفوعًا: «إنّ من الغيرة ما يحبها الله، ومنها ما يبغضها الله، فالّتي يبغضها الله الغيرة في غير ريبة»(١).

فالمرأة قد تكون ملتزمة بالحجاب الشّرعيّ وبالضّوابط الشّرعيّة، ولكن شدّة الغيرة قد تحمل

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٥٩)، وقال الألباني: حسن.

الرّجل علىٰ تفسير أي موقف علىٰ سوء الظنّ، ولقد قال – عز وجل – : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال النّبيّ ﷺ: «إيّاكم والظّنّ؛ فإنّ الظنّ أكذب الحديث»

فشدّة الغيرة تجعل المرء لا يحكم عقله، بل ينساق وراء ظنونه ووسوسة الشيطان له، ولقد قال سهل بن هارون: ثلاثة يعودون إلىٰ أجنّ المجانين، وإن كانوا أعقل العقلاء: الغضبان، والغيران، والسكران».

ومن الأشياء التي يجب علىٰ المرء أن يتفطّن إليها أنّ الشّيطان قد يدخل للمرء من باب الغيرة ويجعله يُبالغ فيها حتىٰ يفرق بينه وبين زوجته، وهو من الشّرَك الّذي ينصبه لبني آدم، وهذا أمرٌ يتمنّاه الشّيطان.

وجاء في الحديث الّذي رواه مسلم: «أنّ الشيطان ينصب عرشه علىٰ الماء، ثم يرسل سراياه تترىٰ إلىٰ بني آدم، فيجيئه أحدهم، فيقول: لم أزل به حتّىٰ زنىٰ، فيقول: ما فعلت شيئًا. فيجيئه آخر فيقول: لم أزل به حتّىٰ فرّقت بينه وبين زوجته، فيقول: أنت أنت، نعم أنت، ويلتزمه»

وقال ابن القيّم في «الجواب الكافي»: «وفي الصحيح: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشّرين ومنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك أثنىٰ علىٰ نفسه» فجمع في هذا الحديث بين الغيرة الّتي أصلها كراهة القبائح وبغضها وبين محبة العذر الّذي يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان،

والله سبحانه مع شدّة غيرته يحب أن يعتذر إليه عبده ويقبل عذر من اعتذر إليه، وأنّه لا يؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه، حتىٰ يعذر إليهم، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ إعذاراً وإنذاراً، وهذا غاية المجد والإحسان، ونهاية الكمال؛ فإنّ كثيراً ممن تشتد غيرته من المخلوقين تحمله شدّة الغيرة علىٰ أن لا يقبل عذراً وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله علىٰ قبولها قلّة الغيرة، حتّىٰ يتوسّع في طريق المعاذير، ويرىٰ عذراً ما ليس بعذر، وكل منهما غير ممدوح علىٰ الإطلاق.

وقد صحّ عن النّبيّ ﷺ أنه قال: «إنّ من الغيرة ما يحبها الله، ومنها ما يبغضها الله، فالّتي يبغضها الله الغيرة في غير ريبة» وذكر الحديث.

وإنّما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر فيغار في محل

الغيرة، ويعذر في موضع العذر، ومن كان هكذا، فهو الممدوح حقًا، ولمّا جمع الله صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد، ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغي له، بل هو كما مدح نفسه وأثنىٰ علىٰ نفسه؛ فالغيور قد وافق ربّه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصّفة إليه بزمامه، وأدخلته علىٰ ربّه وأدنته منه وقرّبته من رحمته وصيرته محبوبًا له. . . إلخ».

وقال في «روضة المحبين»: «وغيرة العبد علىٰ محبوبه نوعان: غيرة ممدوحة يحبها الله، وغيرة مذمومة يكرهها الله، فالّتي يحبّها الله أن يغار عند قيام الريبة، والّتي يكرهها أن يغار في غير ريبة، بل من مجرد سوء الظنّ، وهذه الغيرة تُفسد المحبّة وتوقع العداوة بين المحب ومحبوبه.

وفي المسند وغيره عنه ﷺ قال: «الغيرة غيرتان: فغيرة يحبـها الله، وأخرى يكرهها الله» قلنا: يا رسول الله، ما الغيرة التي يحبها الله؟ قال: «أن لا تؤتى معاصيه، أو تنتهك محارمه» قلنا: فما الغيرة الّتي يكرهها الله؟ قال: «غيرة أحدكم في غير كنهه»

وفي الصحيح عنه ﷺ: «إنّ من الغيرة ما يُحبُّ الله، ومنها ما يكره الله؛ فالغيرة الّتي يُحبّها الله الغيرة في الريبة، وأما الغيرة الّتي يكرهها الله الغيرة في غير ريبة»

وفي الصحيح عنه ﷺ أنّه قال: «أتعجبون من غيرة سعد، لأنا أغير منه، والله أغير منّي»

وقال عبد الله بن شداد: «**الغيرة غيرتان: غيرة يُصلح الرجل بها أهله، وغيرة تُدخله النار**».

فصل

في بيان أنّ الزواج من المطلقة أو الأرملة لا يُنافي الغيرة

يرىٰ كثيرٌ من أهل الزمان أنّ الزواج من المطلقة أو الأرملة يُنافي الغيرة، وأنّ الرجل إذا لم يسبق له الزواج وتزوّج بامرأة مُطلّقة أو أرملة يُعدُّ سَافل الهمّة، ساقط المروءة.

وهذا غلطٌ بيّنٌ، وخطأٌ فاحش، وللأسف الشّديد أنّ هذا الفهم، وهذا التّصوّر تتلوّث به أذهان الكثير ممّن نتوسّم فيهم الخير والصّلاح، ونعدهم ممن يُخالفون العادات والتقاليد السائدة، وممّن يُحاربون أعراف الجاهلية الفاسدة.

وقد يرىٰ البَعْضُ أنّ طلاق المرأة يُعَدُّ عَيبًا مُشينًا

يُنقص من مكانتها، حتىٰ وإنْ كانت مظلومة وذات دين وصلاح.

ويَسْتَدِلُّ البعضُ علىٰ أنّ الزواج بامرأة سبق لها الزواج من قَبْل يُنافي الغيرة بقصة سعد بن عبادة؛ وذلك لأنّ الصّحابة اعتذروا للنّبيّ ﷺ عن سعد بأنه كان شديد الغيرة، ولم يتزوج امرأة إلاّ بكرًا، وما طلّق امرأة فجرؤ أحدٌ أن يتزوّجها.

ونحن نقول ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية، فلقد قال: ما احتج مبطلٌ بدليل صحيح إلاّ كان في نفس الدليل ما يردّ عليه.

فنقول: أولاً – هذا الذي قاله الصحابة كان حكاية عن حال سعد قبل الإسلام لا حاله في الإسلام.

ثانيًا – أنَّ النَّبيّ ﷺ عقّبَ علىٰ كلامهم بقوله:

«أتعجبون من غيرة سعد، لأنا أغير منه، والله أغير منِّي».

فكان النَّبيُّ ﷺ أشدّ غيرة من سعد، ومع ذلك تزوّج أوّل ما تزوّج بامرأة قد سبق لها الزواج من قبل، وهي خديجة بنتُ خُويلد ﵂ وكان يُحبها ويُفضلها علىٰ نسائه كلهن، وكان كثيراً ما يذكرها بعد موتها، حتَّىٰ غارت عائشة منها، كما روىٰ مُسْلم عنها أنها ﵂ قالت: «ما غرتُ للنّبيّ ﷺ علىٰ امرأة من نسائه، ما غِرْتُ علىٰ خديجة؛ لكثرة ذكره إياها، وما رأيتها قط».

ولم يتزوج النّبيُّ ﷺ عليها حتَّىٰ ماتت كما جاء في صحيح مسلم عن عائشة ﵂ أيضًا أنها قالت: «لم يتزوج النّبيُّ ﷺ علىٰ خديجة حتىٰ ماتت».

وتزوّج النّبيُّ ﷺ أيضًا بامرأة مُطلّقة وهي زينب

بنت جحش، والّذي زوّجه إيّاها هو ربٌّ العالمين من فوق سبع سماوات، وأنزل اللهُ في كتابه أنّ زيداً قضىٰ منها حاجة، فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ولم يرَ النّبيُّ ﷺ في ذلك غضاضة ولا حرجًا مع أنه كان يرىٰ زيداً دائماً، بل كان زيدٌ من أحب النّاس إليه كما كان ابنه أسامة من أحب النّاس إليه من بعده، فلقد جاء عن ابن عمر أنه قال: «بعث رسول الله ﷺ بعثًا وأمّر عليهم أُسامة ابن زيد، فطعن النّاس في إمرته، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إن كُنتم تطعنون في إمرته، فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل، وايّم الله إن كان لخليقًا للإمرة، وإن كان لمن أحب النّاس إليَّ، وإنّ هذا لمن أحب الناس إليَّ من بعده» [رواه مسلم].

ولقد فعل كثيرٌ من الصحابة مثل هذا ولم يَرَوْا فيه

حرجًا ولا منقصة لهم، فها هو جابر بن عبد الله رضي الله عنه تزوّج أوّل ما تزوّج بأيّم كانت بالمدينة.

وَلَمّا توفي جعفر بن أبي طالب عن أسماء بنت عميس تزوّجها أبو بكر من بعده، فلمّا تُوفّي عنها أبو بكر تزوّجها عليٌّ بن أبي طالب.

ولَمّا تُوفّي محمد بن أبي بكرٍ عن عاتكة تزوّجها عمر بن الخطاب - وكان شديد الغيرة - ولمّا توفي عنها تزوّجها الزُّبيرُ بنُ العوّام، وكان الزُّبَيْر يغارُ عليها غيرة شديدة، حتىٰ أنه كان يكره أن تذهب إلىٰ الصَّلاة في المسجد، فتخبّأ لها ذات يوم، ووضع يده عليها، فأسرعت راجعة إلىٰ البيت، وسَبَقَها هو، فقال: ما الّذي أرجعك؟ قالت: كُنَّا نخرج والنّاسُ ناس، أمّا الآن فلا. ولَمْ تَخرج بعدها.

وها هو معاوية بن أبي سفيان عندما تُوفّي أبو

الدرداء، أرسل إلىٰ أمّ الدرداء يخطبها - وكان أمير المؤمنين إذ ذاك - فقالت: يا معاوية، ما مثلك يرد، ولكنّي عاهدتُ أبا الدّرداء ألاَّ أتزوّج بعده.

ولو أراد معاوية بِكْرًا لوجد الكثير، ولكنه كان يُريدُ أن يُلحق هذه المرأة الشريفة عالية القدر بنسائه.

والمقصود من هذا كله أنّ الأساس في اختيار المرأة هو الدّين، فإذا كانت مُطلّقة أو أرملة وأكثر تديّنًا من غيرها، فهي أولىٰ بأن يتزوّج المرء منها، وهذا لا يُنافي الغيرة وكمال الرجولة.

أمَّا حديث جابر الّذي فيه: «فهلاً بكراً تُلاعبها وتُلاعبك، وتُداعبها وتُداعبك»

فليس فيه منقصة من شأن الثّيّب؛ لأنّ النّبيّ ﷺ قد بيّن فيه ما تفضُل به البِكْر علىٰ الثَّيِّب وهو أنها تكون أقرب إلىٰ المرح والمزاح.

ولكن هل هذا الأمر يُعدُّ مسوغًا للحطِّ من قدر الثَّيِّب والتَّنقُّص من شأنها، أو أنه يجعل المرء يترك ذات الدّين والصّلاح إلىٰ من هي أقل منها؛ لأنّها بِكْرًا؟

فنرجوا أن يُصحّحَ النَّاسُ أفكارهم، ولا ينساق أهلُ الفَضْلِ والصَّلاح مع تقاليد وعادات المجتمع الفاسد، وأن تكون نظرتهم للأمور وِفْق ما جاء في شرع الله عز وجل.

والحمدُ لله ربّ العالمين.

كتبه

حمادة أحمد إسماعيل

فهرس

■ مقدمة الدكتور محمد إسماعيل المقدم ٥
■ المقدمة ٧
■ فصل في بيان معنىٰ الغيرة وأنها من الفطرة ١٣
■ فصل في بيان أن الضّرورة داعية لقوامة الرجل علىٰ المرأة وأن هذه القوامة باعثها الغيرة ١٧
■ فصل في الغيرة بين الجاهلية والإسلام ٣٠
■ فصل في بيان أن الغيرة من أخلاق النبلاء والفضلاء ومن صفات الرجولة ٣٧

- فصل في غيرة النّبيّ ﷺ ٤٤
- فصل في غيرة الصحابة رضوان الله عليهم ٥٠
- صور من غيرة السّلف ٥٧
- فصل في بيان أنّ الغيرة من الصفات الّتي تفتش عنها المرأة في زوجها ٦٦
- الحال المزرية في أزمنة الغربة الثانية ٦٨
- فصل في غيرة الحيوانات ٧١
- فصل في بيان مظاهر التفريط في الغيرة ٨١
- فصل في بيان أن من دواعي الغيرة اختيار الزوجة الصالحة ١٠١
- فصل في بيان أن التعفف من دواعي الغيرة ١٠٧
- نداء إلىٰ إخواني ١٠٩
- فصل في بيان الغيرة المذمومة ١١٣

■ فصل في بيان أنّ الزواج من المطلقة أو الأرملة لا ينافي الغيرة ١١٩

■ الفهرس ١٢٦

العصرية للطباعة
هاتف: ٢٩٨٤٣٧٥
فاكس: ٢٤٣٣٢٤٩
محمول: ٠١٠١٩٠٠٠٣٨٠